الجمهورية العراقية
وزارة الاعـلام
مديرية الآثار العامة
بغـداد

سومر

مجلة علمية تبحث في آثار الوطن العربي وتاريخه

الجزء الاول والثاني | ١٩٧٦ | المجلد الثاني والثلاثون

ثبت الجزء

الصفحة		الكاتب
٣	كلمةالسيد رئيس الجمهورية المناضل احمد حسن البكر بمناسبة الاحتفال بذكرى الفارابي	
٧	البعث والتراث	الدكتور عيسى سلمان
١١	نشأة الدين والحضارة والعصور الجليدية	الدكتور فوزي رشيد
٤١	دراسة لتمثال اكدي من البرونز	الدكتور طارق عبدالوهاب مظلوم
٤٩	دراسة اولية لتمثال باسطكي	الدكتور فوزي رشيد
٥٩	التنقيب في سهل شهرزور ـ تل كردرش	اسماعيل حسينحجارة
٨١	دلاية « فيروز » من عهد الملك نينورتا ـ ابل ـ ايكور	الدكتورة بهيجة خليل اسماعيل والدكتور موريزيو توسي
٨٩	حجرة حدود من زمن الملك مردوك شابك	الدكتور فوزي رشيد
١١٣	اكتشاف منشآت بابلية محاذية لدجلة في جانب الكرخ من بغـداد ـ تقرير اولي	الدكتور بهنام ناصر نعمان
١٢١	منجنيق من الحضر	الدكتور صلاح حسين
١٣٥	المظاهر العسكرية لحصن الاخيضر	اللواء الركن المتقاعد صبيح محمد رؤوف والدكتور صلاح حسين
١٤٥	منازل الخلفاء وقصورهم في بغداد في العهود العباسية الاولـى .	الدكتور صالح احمد العلي
١٩١	عمارة سامراء العباسية في عهد المتوكل	الدكتور طاهر مظفر
٢٣٧	من امثال بغداد في العهد العباسي	عبدالرحمن عبدالجبار طالب
٣٣٩	التعريب وكبار المعربين في الاسلام	سليم طه
٣٩٣	الخط العربي في تركيا	عباس العزاوي
	التقارير والانباء والمراسلات	
٤٢٤	آثار متفرقة احرزها المتحف العراقي	كمال منصور حسين

نشأة الدين والحضارة والعصور الجلدية

بقلم : الدكتور فوزي رشيد
مدير المتحف العراقـي

لقد تعارف المؤرخون على تحديد بداية عصور ما قبل التاريخ بالفترة التي استخدم الانسان فيهـا لاول مرة الاحجار في صنع أدواته الخاصة • واقدم صناعة حجرية عند الانسان ترجـع بتاريخهـا الى حوالي ٦٠٠ ألف سنة ، اذ عثر المنقبون على أدوات حجرية تعود الى هذا التأريخ ويعتقد أنها من صنـع الانسان • وهذه الاثار قد عثر عليها لاول مرة في انكلترة وفي المدن التالية : « ابسفج Ipswich « نورفج – Norwich » ، « كرومر Cromer « شيللي – Shelly » و « فوكس هـول – Faxhall » عنـد ابسفج[1] • وكذلـك في الساحل الشمالي لقارة افريقية وتلى ذلك ان حصل الباحثون على ملتقطات كثيرة نتيجة البحث والحفريات المتعددة مكنتهم من تتبع المراحل التطورية للحضارات الاولى التي عاشت في الفترة المسـماة بالعصـور الحجرية القديمة • والان يتوجب علينا ان نعرض ولو بشكل مختصر الاسباب التي أدت الى نشـوء اولى الحضارات في التاريخ •

اننا لو القينا نظرة سريعة على خارطة العالـم لحضارات عصور ما قبل التاريخ سوف نجد بالتأكيد بان المناطق التي استوطنها سكان تلك الحضـارات الاولى والحضارات التي تلتها وحتى الوقت الحاضر لاتتعدى اسيا واوربا وشمال افريقية وبصـورة أدق لا تتعدى تلك الاجزاء الواقعة بين مدار السـرطان والدائرة القطبية الشمالية من الكـرة الارضيـة • وهذه بلا شك ظاهرة تدفع لاول وهلة الى الاستغراب

(١) Prof. Dr. Vladimir Milojcic, Grosser Historischer Weltatlas, München 1958, p. 14.

وتحتاج حتما الى ايضاح • وتعليل ذلك يرجع في نظرنا الى ان الظروف المناخية المتوافرة في هذه الاجزاء المذكورة وطبيعتها الجغرافية كلها لا تساعد على توفير الغذاء للانسان مالم يقم بعمل معين من أجل تحضيره • فمن هذا يكون واضحا بان بيئة هذه المناطق هي التي ساعدت على قيام الحضارات فيها دون غيرها من بقاع العالم ، لاننا نحن البشر لو لاحظنا تصرفاتنا بدقة لوجدنا بان الانسان يميل بطبعه الى الخمول ولا يحب العمل وهو على هذه الشاكلة يملك ما يشبه الظاهرة الفيزيائية المسماة بالقصور الذاتي ، تلك الظاهرة التي مفادها بان المادة في الطبيعة لا ترغب في تغيير الحالة التي هي عليها ما لم تؤثر فيها قوة خارجية فالانسان كذلك لا يعمل ولا ينتج حضارة ان توفر له الغذاء بسهولة والذي يؤكد هذه الناحية هو ان سكان المناطق الاستوائية الوفيرة الغذاء لم يقدموا أية حضارة كانت واما بالنسبة للمناطق الصحراوية فأنها مجدبةوحتى العمل لا ينفع في انتاج الغذاء (وذلك بغض النظر عن امكانيات عصرنا الحالي) ولهذا السبب لم يتمكن سكانها من تقديم حضارة معينة وانما كانوا ولا يزالون مضطرين الى الهجرة كلما يزداد عددهم •

فمن هذا يبدو واضحا بان الانسان ومنتجاته الفكرية تتحكم فيهما القوانين الفيزيائية كتحكمها بالمادة في الطبيعة • فالجاذبية حسب نظرية اينشتاين ظاهرة ناتجة عن القصور الذاتي الموجود في المادة وعن الحركة المؤثرة في تلك المادة[٢] وكذلك الحال بالنسبة للحضارة فهي ناتجة عن تحدي الطبيعة لخمول الانسان فان انعدم هذا التحدي اختفت بانعدامه الحضارة كذلك •

لقد ذكرنا بان أقدم الادوات الحجرية التي عثر عليها لاول مرة في انكلترة ترجع بتاريخها الى حوالي ٦٠٠ ألف سنة ، وهذا التاريخ حسب معلوماتنا الحالية يعاصر الى حد كبير أول عصر جليدي شهدته الكرة الارضية[٣] • وهذا التعاصر بين أول حضارة بشرية واول عصر جليدي يدفعنا بلا شك الى الاعتقاد بان العصور الجليدية لا بد وان كانت هي السبب الذي ارغم الانسان القديم على التفكير من أجل صنع أدواته الحجرية المتمثلة في الفؤوس اليدوية تلك الادوات التي تعتبر بحق أولى بذور الحضارات القديمة والذي يؤيد هذا الاعتقاد يتمثل في الهدف الذي رماه الانسان من وراء صنع فؤوسه اليدوية اذ ان هذه الفؤوس كما نعتقد ما صنعت بادى الامر الا لحفر الارض واستخراج ما في داخلها من جذور النباتات والنباتات الدرنية •

والسبب الذي أدى الى احتياج الانسان الى النباتات المذكورة وتفكيره في صنع الفؤوس اليدوية لاستخراجها خلال الفترة التي بدأت فيها العصور الجليدية وبالاخص في القارة الاوربية يرجع الىان مناخ القارة المذكورة أصبح في فترة العصورالجليدية قارص البرودة لسببين الاول هو انخفاض درجة

---

(٢) الدكتور عبدالرحيم بدر ، الكون الاحدب الجاذبية عند اينشتاين ص ٢٢٧ـ ٢٣٦ •

(٣) H. Jürgen Eggers, Einführung in die Vorgeschichte, München 1959, p 194 f.

حرارة الشمس الذي نتج عنه العصور الجليدية والثاني هو بعد ان تغطت أقسام واسعة من اوربا بالجليد ساعد ذلك على زيادة برودة المناخ • وهذه البرودة قد قضت بلا شك على أغلب النباتات التي تنمو فوق سطح التربة والتي كانت تمثل جزءا من غذاء الحيوان والانسان • والنقصان الذي حصل في مثل هذا النوع من النباتات في فترة العصور الجليدية أدى الى هجرة الحيوان الذي كان ولايزال من أهم مصادر غذاء الانسان بعد النباتات • وهذه الناحية حسبما نعتقد وضعت انسان اوربا على هاوية الهلاك ، لان موارد غذائه قد تقلصت واقتصرت على النباتات الدرنية القادرة على تحمل البرودة وعليه فقد توجه الانسان بكل امكاناته للحصول على مثل هذه النباتات ، وحاجته الملحة لها دفعته بلا شك الى صنع الفؤوس الحجرية ليسهل عليه من خلالها الحصول على مثل هذه النباتات ويسهل عليه أيضا بواسطتها تكسير جليد البحيرات والانهار ليصطاد ما تحتويه من أنواع الاسماك المختلفة • لاننا لو حاولنا بكل طاقاتنا التخيلية ان نتصور الغاية التي دفعت الانسان القديم الى صناعتها لا يمكننا ان نتخيل غاية اخرى غير غاية حفر الارض والجليد واستخراج ما في داخلهما من مواد غذائية •

وعلى هذا الاساس يمكننا الافتراض بان الادوات التي استخدمها الانسان قبل حدوث العصور الجليدية كانت تتألف على الاغلب من أغصان الاشجار وربما من الحجارة الطبيعية أيضا •والحقيقة ان هذا الرأي ليس بجديد اذ سبقنا فيه مؤرخ يوناني عندما كتب عن اسلحة الانسان وتطورها في مؤلفه « (De rerum Natura) » حيث قال بان اولى الاسلحة التي استخدمها الانسان كانت لاتتعدى الايدي والارجل أي أطراف الجسم وبعد هذه المرحلة صنعت اسلحته من أغصان الاشجار ومن بعدها من الحجر فالبرنز فالحديد • وبهذا التقسيم يكون هذا المؤلف اليوناني المدعو « لوكريتيوس كاروس Lucretius Carus » قد افترض كذلك بان أدوات الانسان كانت تتألف من أغصان الاشجار قبل بداية العصور الجليدية •

والان صار واضحا لنا بان بداية العصور الجليدية كانت التحدي الطبيعي للانسان الذي استجاب له بأبتكار الفؤوس اليدوية المصنوعة من الحجر • وعليه فان ما تقدم يؤيد مبدأ « التحدي والاستجابة » الذي جاء به المؤرخ الانكليزي الشهير « ارنولد توينبي »(٤) •

والان يجدر بنا ان نذكر شيئا مختصرا عن العصور الجليدية وعن أسبابها ونتائجها وعن الفترة التي حدثت فيها والمناطق التي غمرها الجليد آنذاك وكيف تمكن العلماء من التعرف عليها •

---

(٤) Arnold J. Toynbee, Der Gang der Geschichte, Erster Band, Stutfgart, Zürich, Salzburg.

انظر من هذا الكتاب بداية الفصل السابع

Die Herausforderung : (VII)

وانظر ايضا منهاج توينبي
التاريخي ، للاستاذ فؤاد محمد شبل ص ٤١ ــ ٦١ •
Von seiten der Umwelt, p. 89 f.

اكتشافها :

نتيجة الابحاث الجيولوجية التي قام بها المشتغلون في هذا المجال وعلى رأسهم العالم الالماني « بينك ـ Penck »[٥] تمكنوا من التوصل الى ان الكرة الارضية قد عاشت أربعة عصور جليدية تخللتها فترات دافئة[٦] والادلة التي هدت « بينك » الى معرفة هذه الحقيقة هي الطبقات الرسوبية والاثار التي خلفتها الثلاجات الزاحفة على حواف الانهار والتي لا تختلف بشي عن تلك الاثار التي تخلفها الثلاجات الزاحفة في الوقت الحاضر في الاقسام الشمالية من اوربا • ومن نوعية هذه الطبقات الرسوبية واثار الاحتكاك توصل العالم المذكور الى ان عدد هذه العصور كان أربعة وقدر المدة التي استغرقتها بادىء الامر بـ ٦٤٠ ألف سنة الا ان نتائج الدراسات الخاصة بنفس الموضوع قد بينت بان بداية العصور الجليدية تقدر بحوالي ٦٠٠ ألف سنة • وسمى « بينك » عصوره الجليدية الاربعة باسماء الانهار التي ميز عليها اثار الاحتكاك وهي « كونز » و « مندل » و « رس » و « فورم » وهذه الانهار موجودة في منطقة « بايرن » في جنوب المانيا[٧] • ومما يجدر الانتباه اليه ان الادلة التي مكنت الجيولوجيين من معرفة العصور الجليدية الاربعة كانت تستند بشكل رئيس على التخدشات واثار احتكاك الجليد بحواف الانهار • وهذه الحقيقة بحد ذاتها تعطينا دليلا أكيداً على ان الجليد لم يتكون محليا في المناطق الواسعة التي غطاها وانما زحف اليها من مناطق مرتفعة مثل الاقسام الشمالية من اوربا وجبال الالب وهي تؤكد لنا أيضا بان المناطق الواطئة التي غطاها الجليد لم تنخفض فيها درجات الحرارة الى حد كبير عما هي عليه في الوقت الحاضر بحيث يسمح بتكون الجليد محليا • ولذا يعتقد الباحثون في الوقت الحاضر بان درجة الحرارة لم تنخفض اثناء العصور الجليدية الا درجات معدودة تتراوح ما بين ٥ـ١٠ درجات مئوية • وهذا الانخفاض البسيط في درجة الحرارة جعل حرارة فصل الصيف غير قادرة على اذابة كميات الثلوج التي تتجمع في فصل الشتاء على الجبال ونتيجة ذلك يتراكم المتبقي منها على قمم الجبال وبعد مرور عدد كافي من السنين يبدأ الجليد المتجمع على الجبال بالزحف الى المناطق الواطئة والمحيطة بها • هذا مع العلم بان المناطق التي حدثت فيها العصور الجليدية هي الاقسام الشمالية من امريكا الشمالية وقارة اوربا ومنطقة جبال الالب •

نتائجها :

بينا في أعلاه بان المناطق التي زحف منها الجليد بالنسبة الى القارة الاوربية كانت جبال الالب

---

(٥) دراسة « بينك ـ Penck » منشورة في :
Penck, A. und Brückner, E. Die Alpen im Eiszeitalter, Leipzig 1901-1908.

(٦) ملخص اراء العلماء حول العصور الجليدية منشورة في :
H. Jürgen Eggers, Einführung in die Vorgeschichte p. 184 f.

(٧)
Prof. Dr. Vladimir MiloJcic, Grosser Historischer Weltatlas, München, 1858, p. 8.

والمناطق الشمالية من القارة المذكورة واما البقـــاع التي غمرها فهي تلك الاراضي الواطئة القريبة من مناطق تجمع الجليـــد • وبسبب تغطيـــة الجليـد مساحات ليست صغيرة من القارة الاوربية أصبحت القارة المذكورة منطقة ضغط عالي في الوقت الـــذي كانت فيه منطقة الشرق الادنى وافريقية وغيرها من البقـاع الاسيوية الجنوبية ذات ضغط واطيء بالنسبة الى اوربا • وهذا التفاوت في الضغط أدى الى هجوم الرياح الباردة المحملة ببخار الماء من اوربـــا الـى المناطق ذات الضغط الواطيء • وهذه الرياح تسببت بطبيعة الحال بأحداث عصور ممطرة فيمنطقة الشرق الاوسط وافريقية ، فنمت نتيجة ذلك الاعشـــاب والنباتات خلال فترة العصور الجليديـــة حتـى في المناطق التي هي صحراوية في الوقت الحاضر •

هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى فـــان الكميات الكبيرة من الجليد التي تراكمت خلال فترة العصور الجليدية على اليابســـة أدت الى حـــدوث انخفاض في مستوى سطح البحر[٨] ، وعليه فـــان بعضا من المناطق التي تغطيها مياه البحار في الوقـت الحاضر كانت اراضي يابسة خلال الفترة المذكورة• وكمثل على ذلك يقال بان الخليج العربي خـــلال فترة العصور الجليدية كان متراجعا عـن حـــدوده الحالية بسبب النقصان الذي حصل في مياهالمحيطات•

اسبابها :

لقد تدارس المختصون بعلم الفيزياء والفلـــك والجيولوجية نوعية السبب الذي أدى الى حـــدوث العصور الجليدية والخلاصة التي وصلوا اليها هـو انهم لم يتفقوا على سبب معين وانما اقترحوا لنـــا أسباباً مختلفة ربمـا يكـون احدهـا هـو السـبب الحقيقـي للعصـور المذكـورة • وعليـه فأننـا في هذا المجال سنشرح الاسباب العديدة التي اقترحت وذلك لعدم استطاعتنا ترجيح أحدها وهي كالاتي :ـ

١ ـ تغير في درجة حرارة الشمس

علل المختصون هـذا العامل بادي الامر عـلى ان اسبابا غير واضحة لهم حدثت في الشمس وادت الى انخفاض شدة حرارتها عـــلى الكرة الارضيـة بنسبة ٥ـ١٠ درجات مئوية في كل فترة من فتـرات العصور الجليدية الاربعة ، والذي أيد لهم هـــذا الاعتقاد هي الدراسة التي قام بهـــا أحـــد الفلكيين اليوغســـلافين والمـــدعـــو « ميـلانكـــوفـج ـ M. Milankovitsch » اذ ان هذا العـــالم قد درس الاشعاعات الشمسية عـــلى اسس فلكيـة ووصل من نتيجة دراســـته عام ١٩٢٠ بان شـــدة الاشعاع الشمسي قد خضعت لتغيرات كثيرة خـلال الـ ٦٠٠ ألف سنة الاخيرة[٩] •

٢ ـ غبار كوني بين الشمس والارض

والعامل الاخر الذي افترض العلماء على انـه قـد تسبب في حدوث العصور الجليدية هو تجمـع غبار كوني بين الشمس والارض • وهذا الغبـــار قد حجب قسما قليلا من أشعة الشمس وســـبب الانخفاض البسيط في حرارتها والذي قلنا بخصوصه أنه يتراوح ما بين ٥ـ١٠ درجات مئوية • وهـــذا

---

(٨) Prof. Dr. Vladimir Milojcic, Grosser Historicher Weltatlas, München, 1958, p. 8; H. J. Eggers, Einführung in die Vorgeschichte, p. 115 f.

(٩) المصدر السابق ص ١٩٤ .

الانخفاض البسيط جعل حرارة الصيف في اوربـــا غير كافية لاذابة جميع ما يتجمع من جليد على مناطقها المرتفعة في فصل الشتاء • والغبار الكوني كما يفسره العلماء هو المادة الاولية السائبة في الكـــون والتـــي بتجمعها ودوراتها حول نفسها تتولد منها النجـــوم والكواكب والمذنبات[١٠] •

٣ ـ ارتفاع منطقة اوربا عن مستوى ســـطح البحـــر

والسبب الثالث الذي افترض لحدوث العصور الجليدية يستند على ان القارة الاوربية قـــد ارتفعت لاسباب جيولوجية عن مستوى سطح البحر بنسبة تزيد قليلا عن ارتفاعها الحالي • ومما هـــو ثابت ومعروف لدينا بان أية منطقة كانت كلما ارتفعت عن مستوى سطح البحر كلما انخفضت درجة حرارتها، والارتفاع الذي حصل في القارة الاوربيـــة ادى الى انخفاض درجات الحرارة بالنسبة التي ذكرت اعلاه وأدت الى حدوث العصور الجليدية الاربعة •

٤ ـ قلة نسبة ثاني اوكســـيد الكاربـــون في الجو[١١] •

بنتيجة الدراسات المناخية توصـــل بعض من الباحثين الى ان نسبة النباتات والاشجار قد ارتفعت على الكرة الارضية قبل كـــل عصـــر من العصـــور الجليدية الاربعة ، وهذه الزيادة في نسبة النباتـــات والاشجار قد قللت من كمية ثاني اوكسيد الكاربون الموجودة في الجو وازادت في كمية الرطوبة ، ومما هو معروف ان النباتات خلال عملية التركيب الضوئي نهارا تستهلك ثاني أوكســـيد الكاربـــون وتطرح الاوكسجين • وما دام ثاني اوكسيد الكاربون مـــن الغازات التي تمتص أشعة الشمس فقلته في الجـــو تؤدي الى زيادة انعكاس أشعة الشمس الى خـــارج الكرة الارضية ونقصان في امتصاصها • وهذا مـــا سبب انخفاض في درجات الحرارة على الكرة الارضية بالنسبة التي ذكرناهـــا وادى كذلـــك الى تحـــول الكميات الهائلة من بخار الماء الى جليد وفي نفـــس الوقت جعل حرارة الصيف غير قادرة على اذابـــة ما يتولد من جليد خلال فصل الشـــتاء • وانني في الواقع اشكك في ان يكون هذا التفسير سببا لحدوث العصور الجليدية •

٥ ـ ميلان محور الارض

ان هذا السبب هو آخر الاسباب المقترحـــة وملخصه ان حدث ميلان في محـــور الارض وادى هذا الميلان الى قلة الحرارة في الاقسام الواقعـــة شمال خط الاستواء (انظـــر الشـــكل رقم ١) والحقيقة ان المصدر الذي توفر لي حول هذا السبب كتاب عنوانه « حقائق عن الارض »[١٢] ولكن الشيء الغريب في الموضوع هو ان الكتاب حين يشـــرح هذا السبب لم يبين ما هو تأثير ميلان محور الارض على العصور الجليدية وانما تطرق الى تحول مســـار الارض حول الشمس الى قطع اهليليجي كما هـــو موضح في الشكل رقم (٢) ، ولهذا السبب سأحاول

---

(١٠) الدكتور محمد عبدالرحمـــن مرحبـــا ـ آينشتاين ـ ص ١٢٠ ملاحظة رقم (١) •

(١١) ان السبب الرابع قد اطلعت عليه نتيجة مناقشة شخصية مع احد الجيولوجيين العراقيين حول اسباب العصور الجليدية •

(١٢) باتريك مور ، حقائق عن الارض ، ترجمة فؤاد عبدالعال ومراجعة الدكتـــور الشـــاذلي محمـــد الشاذلي ص ١٢١ ـ ١٢٣ •

شكل رقم ١

شكل رقم ٢

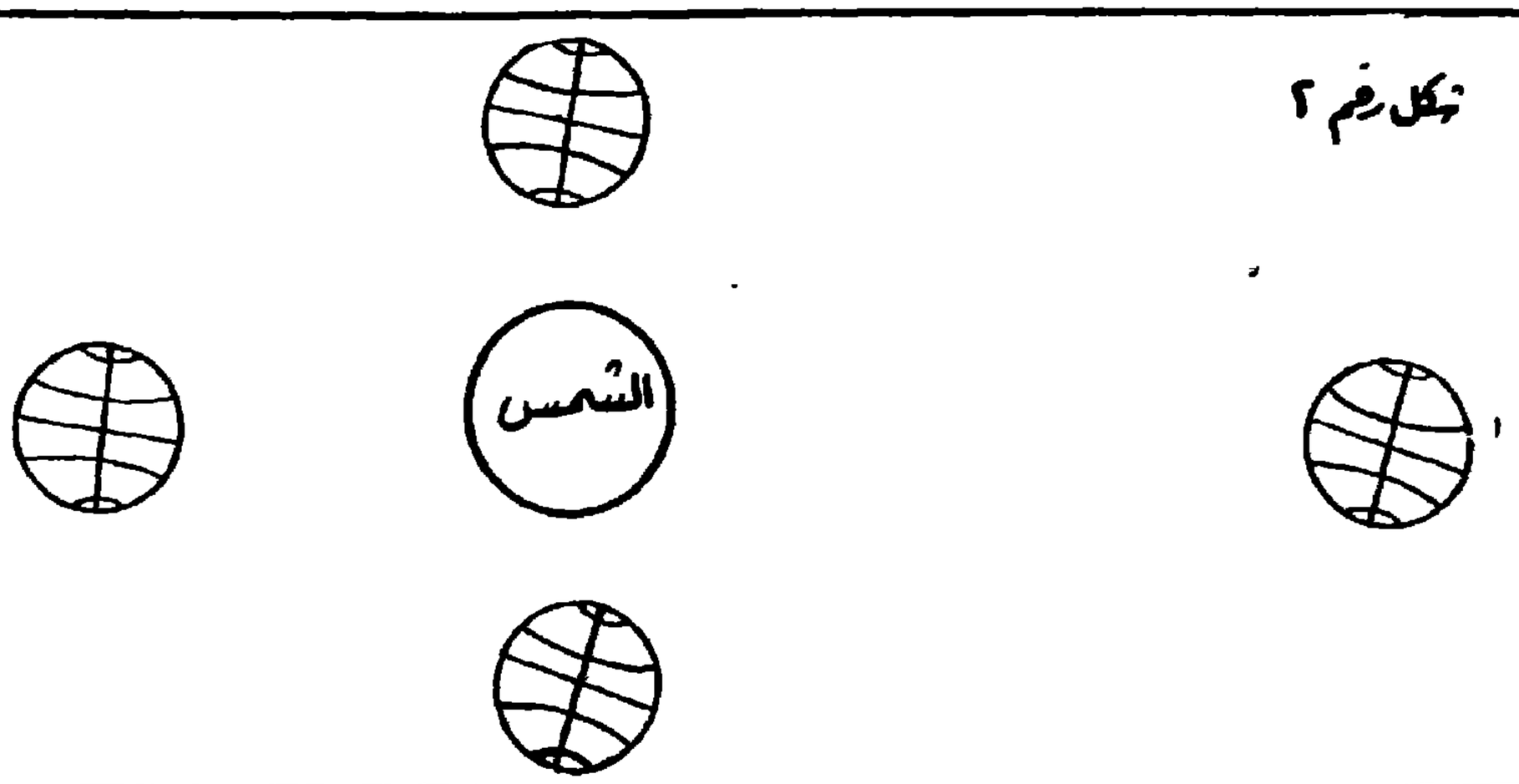

شكل رقم ٣

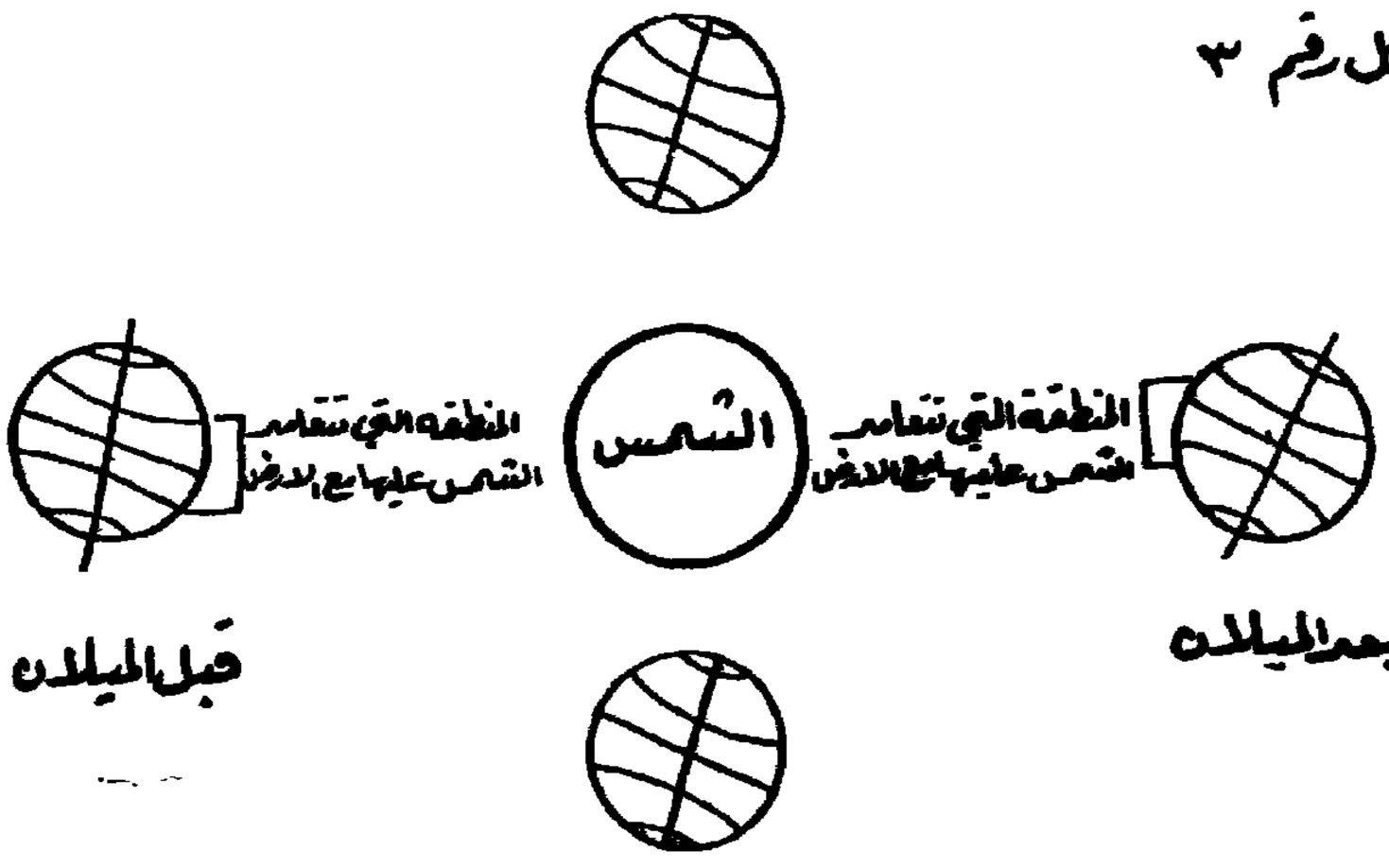

مناقشة ميلان محور الارض وتأثيره على حدوث العصور الجليدية وفقا لمعلوماتي الخاصة في هذا المجال : لقد اثبت انيشتاين مكتشف (النسبية) بان كل نجم او كوكب في هذا الكون يولد حول نفسه غورا وذلك بسبب تحدب الفضاء حوله(١٣) ويمكن تشبيه هذا الغور بالغور الذي تولده كرةمن الرصاص موضوعة على قطعة من القماش مربوطة من طرفيها بشكل افقي ، فاذا وضعت الى قربها كرة اخرى من الرصاص أكبر حجما من الاولىفان هذه الكرة الثانية ستصنع لنفسها كذلك غورا على القماش وسيؤثر لكبر حجمه في غور الكرة الاولى ويسبب لها ميلانا داخل غورها • وعليه اعتقد ان الارض عندما تكون في الجهة التي يحدث اثناءها الشتاء في النصف الشمالي من الكرة الارضية كان محورها يميل أكثر من ميله الاعتيادي بسبب وجود جرم سماوي آخر لا يمكن تحديد نوعيته كان غوره يؤثر في غور الكرة الارضية فيؤدي الى ميلان محورها • وهذا الميلان يتسبب في ان تبتعد القارة الاوربية أكثر من بعدها الحالي عن المنطقة التي تتعامد الشمس عليها مع الارض خلال فصل الشتاء• وعندما تجتاز الارض هذه المنطقة ترجع الى حالتها الطبيعية • ولهذا السبب فان الثلوج الكثيرة التي تتجمع على قمم الجبال اثناء فصل الشتاء لا تكفي حرارة الصيف لاذابتها •

وبمرور عدد من السنين فان الكميات المتجمعة من الجليد على قمم جبال الالب والمرتفعات الشمالية من اوربا تبدأ بالزحف وتغطي المناطق الواطئة المحيطة بهذه المرتفعات •

والآن وبعد ان عرفنا شيئا عن كيفية اكتشاف العصور الجليدية وعن نتائها واسبابها يحسن بنا ان نعرف المدة التي استغرقها كل عصر ونتعرف ايضا على الفترات الدافئة التي فصلت بين عصر وآخر(١٤) •

١ ـ كونز (Günz)

يحدد العلماء كما ذكرنا بداية هذا العصرقبل حوالي ماقبل ٦٠٠ ألف سنة منالانونهايته بـ ٥٤٠ ألفسنة• ومعنىهذا انه استمر ٦٠ألف سنة•وخلال هذه الفترة الطويلة التي استغرقها هذا العصر حدثت فترة دافئة زال فيها سبب العصر الجليدي فانسحب فيها الجليد ، وتقدر هذه الفترة الدافئة بحوالي خمسة الاف سنة وهي التي دفعت العلماء الى تقسيم هذا العصر الى قسمين هما كونز الاول وكونز الثاني • وبعد نهاية القسم الثاني من هذا العصر بدأت فترة دافئة اخرى الا انها طويلة أدت الى زوال هذا العصر الجليدي الاول واستمرت من ٥٤٠ الف سنة حتى ٤٨٠ ألف سنة •

٢ ـ منـدل(Mindel)

استغرق هذا العصر فترة اطول من العصر الاول استمرت من ٤٨٠ ألف سنة حتى ٣٤٠

---

(١٣) الدكتور عبدالرحيم بدر ـ الكون الاحدب ص ٢٣٧ والصفحات التالية •

(١٤) انظر حول تفاصيل هذه التقسيمات :
H. Jürgen Eggers, Einführung in die Vorgeschichte, p. 195 f.

وانظر كذلك الجدول الخاص بالعصور الجليدية الموجودة في بداية الجزء الخاص بالخرائط من :

Grosser Historischer Weltatlas, Vorgeschichte und Altertum.

ألف سنة وقسمه المختصون الى ثلاثة أقسام أول وثاني وثالث وذلك بسبب حلول فترات دافئة قصيرة خلاله • وفي نهاية القسم الثالث منه حدثت فترة دافئة قصيرة نسبيا أمدها ٣٠ ألف سنة ثم رجعت بعدها درجات الحرارة الى الانخفاض فحدث نتيجة ذلك عصر جليدي اخر ولكنه لم يستمر اكثر من ١٥ ألف سنة وسمي هذا العصر ببداية « رس» أي بداية العصر الجليدي الثالث • وبعده بدأت فترة دافئة استمرت من ما قبل ٢٩٥ ألف سنة حتى ٢٣٥ ألف سنة •

٣ ـ رس (Riss)

استمر هذا العصر من ماقبل ٢٣٥ ألفسنة حتى ١٣٥ ألف سنة وقسم كذلك الى ثلاثة أقسام وجاءت بعده فترة دافئة انسحب فيها الجليد دامت ١٥ ألف سنة •

٤ ـ فورم(Würm)

دام هذا العصر من ماقبل ١٢٠ ألفسنة حتى ١٠ الاف سنة قبل الميلاد وحدثت في الثلث الاول منه فترة دافئة انسحب فيها الجليد قليلا دامت حوالي ١٢ ألف سنة وقسم هذا العصر الذي هو اخر العصور الجليدية الى ثلاثة أقسام أيضا •

نشأت الدين

من الدراسات الخاصة بالعصور الحجرية القديمة أكد العلماء بان الانسان القديم قد خلف لنا منذ حوالي ٨٠ ألف سنة من الان ولاول مرةفي التاريخ أعمالا فنية تمثلت في النحت البارز على الحجر والعظام وفي رسومه الملونة كذلك وقد تبين من هذه الانتاجات بأن مواضيعه الفنية كانت تخص عالم الحيوان ومهنة الصيد ولذا فقد اعتقد العلماء بان انسان هذه الفترة كان يعبد الحيوان وان رسومه له كان يستغلها لاغراض سحرية بغية السيطرة بواسطتها عليه لان الحيوان كان يمثل مصدرا غذائيا مهما لا يقل أهمية من النباتات بالنسبة لانسان تلك الفترة • والحقيقة ان ما قدمه الاثاريون من معلومات حول عبادة الانسان القديم لا يمكنها ان تعطينا صورة واضحة عن نوعية تلك العبادة وتفاصيلها وعن الاسباب الموجبة لظهورها • وعليه فمن أجل معرفة الاسباب الموجبة لظهور الدينعلينا ان نطلععلىدراسة العلماء الانثروبولوجيين للشعوب البدائية وبالاخص لتلك القبائل التي كانت تسكن أواسط استراليا قبل فترة قصيرة لا تتجاوز المئة سنة • اذ ان هذه القبائل كانت تعيش حياة بدائية لا يمكن ان تغاير حياة الانسان الذي عاش في فترة العصر الحجري القديم لان أفراد هذه القبائل لايعرفون بناء البيوت ولا الاكواخ ولا يجيدون زراعة الارض ولا يمارسون تربية الحيوانات ولا يعرفون الفن ولا صناعة الاواني الفخارية ، فهم يتغذون على لحوم مختلف الحيوانات وجذور النباتات الصالحة للاكل • وليس هذا فقط بل تبين من دراسة أحوال هذه القبائل أنها كانت تعيش في عزلة تامة ولم توجد هناك أية علاقة كانت بين لغة هذه القبائل وبقية لغات المناطق القريبة من استراليا وزيادة على ذلك لم يتبين وجود اية علاقة عرقيةمع جيرانهم ومعنى هذا انهم لم يتأثروا بالحضارات العديدة التي عاشتها بعض اقطار الكرة الارضية وان دراسة حياتهم الاجتماعية ونوعية

عاداتهم ستعطينا بالتأكيد صورة صادقة عن أقـــدم أنواع العبادات في حياة الانسان •

ومن الدراسات المتوفرة عن هذه العشائر تبين انها تمثل مجتمعا لا يعرف الملوك ولا الرؤساء وان مجمع الرجال عندهم هو الذي يقرر امورهم الدينية والخاصة ومعتقداتهم اطلق عليها علماء الانثربولوجية بعبادة الطوطم(١٥) •

والطوطم كائن قـد يكون حيا أو غـير حي ، ولكنـــه في الغـالب أمـا حيوان أو نبات والطواطم الحيوانية أكثر عددا واوسع انتشارا من الطواطـــم النباتية • وقليل من الطواطم ما يتمثل في جماد أو مظهر من المظاهر الطبيعية • ويقصد من الطـوطـم الحيواني أو النباتي الفصيلة العامة التي ينتمي اليهـا الحيوان أو النبات لا فـرد معين ولا أفراد معينون• فحينما يكون طوطم عشيرة ما الارنب مثلا يكـــون المقصود بذلك فصيلة الارنب على العمـوم دون ان تحدد في منطقة معينة • وافراد العشيرة يعتقدون بان طوطمهم هو سلفهم الاول • وما دام أفراد العشيرة الطوطمية يعتبرون انفسهم منحدرين من أصل واحد فالقرابة عندهم تقوم على أساس الاشتراك في الطوطم فقط ، فهي قرابـــة ليست قائمـــة عـلى صـلات الدم كما هو الحال عندنا في الوقت الحاضر •

ولما كانت العشائر الطوطمية لا تعرف الملوك ولا الرؤسـاء فهي تمثـل مجتمعـــات اشتراكية تسودها المساواة وجميع افرادها في مرتبة واحدة • وبالرغم من عدم وجود سلطة مركزية في هـــذه العشائر الطوطمية فهي ذات تنظيـم اجتماعي منسق، اذ ان القبيلة الطوطمية الواحدة تنتظـم في اتحادين وكل اتحاد يضم مجموعة من العشائر التي تعتقـد انها ترجع في القديم الى أصل واحد • والقبيلـــة ليس لها طوطم معين اما الاتحـــاد فله طوطم عـــام تشترك في تقديسه العشائر التي يتألف منها الاتحاد• ولهذا السبب نجد ان لكل عشيرة طوطمين الاول طوطمها الخاص والثاني هو طوطم اتحادها •

وتقديس هذه الطواطم يكون في مظاهر كثيرة، من أهمها انه يحرم على جميع أفراد العشيرة ان يمسوا بسوء أي فرد من أفراد طوطمها الخـــاص أو طوطم اتحادها العام كما يحرم عليهم ان يأكلوا لحمه أو يدخلوا شيئا من عناصره في اجوافهم • ومخالفة هذه القاعدة تعدّ في نظـر هذه العشائر من أكبر الجرائم ويعتقدون انها تؤدي تلقائيا الى موت المجرم موتا عاجلا أو بطيئا أو الى عذابه عذابا اليما•

ويستثنى من هذه القاعدة بعض الحالات التي حددتها التقاليد • فمن ذلك أنه يباح لافراد العشيرة في بعض المناسبات الدينية أن يأكلوا من طوطمهـم الخاص او طوطم اتحادهم العام على انه طعام ربانـي مقدس ـ سنشرح فيما بعد الاسباب الموجبة لذلك• كما يباح ذلك على الاطلاق اذا كانت الحياة غـير ممكنة بدون الطوطم وبالاخص اذا كان الطوطـــم الماء أو ما يشبهه في ضرورته للحياة • ويبـــاح قتل الطوطم في حالة الدفاع المشـــروع عن النفس واتقاء الاذى وخاصة اذا كان الطوطم مفترســـا أو

---

(١٥) Bücher des Wissens, S. Freud, Totem und Tabu, p. 7-8.
ان كلمة طوطم (Totem) كان يطلقها ، الهنود الحمر على معبودهم وظهرت هذه الكلمة لاول مرة John Long, Voyages and Iravels of an Indian Interpreter

مؤذيا بطبعه كالنمر والثعبان وما اليهما[١٦] • ولكن جميع الحالات التي يباح فيها الاعتداء على الطوطم مقيدة في طرق تنفيذها فالشخص الذي تتهدد حياته مثلا مالم يأكل من لحم طوطمه لا يباح له ان يتناول منه أكثر من القدر الذي يسد به رمقه وينقذه من الهلاك •

ومن مظاهر تقديس الطوطم هو ما تسير عليه بعض العشائر من التزام افرادها بطقوس الحداد عند موت فرد من أفراد فصيلة الطوطم الذي تنتمي اليه أو عند العثور على جثته ، حيث يقومون بدفنه في حفل خاص وبطقوس دينية معينة •

رموز الطوطم

لقد جرت العادة ان ترمز كل عشيرة طوطمية الى طوطمها برمز خاص تصطلح عليه • ويصور هذا الرمز بصور مختلفة ، فأحيانا يكون عبارة عن صورة الطوطم نفسه مرسوما أو مجسما ويكثر هذا النوع من الرموز في العشائر التي ارتقى لديها الذوق الفني وتقدمت في ميادين الرسم والتصوير كعشائر الهنود الحمر بأمريكا • واحيانا يكون الرمز عبارة عن اشكال هندسية أو مجموعة خطوط ليس فيها شيء من صورة الطوطم ، وانما يصطلح اصطلاحا على اتخاذها رمزا له • ويكثر هذا النوع من الرموز في العشائر المتأخرة في ميادين الرسم والتصوير ، كعشائر السكان الاصليين لاستراليا •

ويرمز أحيانا اخرى الى الطوطم بعصا او عدة عصي بعد ان تضاف اليها مواد اخرى • والعشائر الطوطمية الاستراليه تستخدم ثلاثة رموز تدعى « الشورنجا Churinga الوانتجا Waninga » و « النورطنجا — Nurtunja فقد كان يحرم على كل فرد غير معمد أي غير ملتحق بالمجمع الديني للعشيرة لمسها ، بل كان يحرم عليه مجرد النظر اليها الا عن بعد ، وفي بعض المناسبات • ويحرم هذا على جنس النساء على الاطلاق، لان النساء لا يجوز تعميدهن • وتحفظ هذه الرموز عادة في مخابيء خاصة بعيدة عن الطرقات • وتعتبر هذه المخابيء وما يحيط بها مكانا مقدسا لا يسمح بالطواف فيه ولا بالقرب منه الا لمن تم تعميدهم والحاقهم بالمجمع الديني • كما يعتبر حرما امنا لايرتكب فيه منكر ولايصاب الملتجيء اليه بسوء •

وتعتقد العشائر الطوطمية ان مصيرها مرتبط بمصير هذه الرموز ، ولذا فان فقدانها يعتبر اكبر كارثة يمكن ان تصاب بها العشيرة • واذا فقدت احدى العشائر رمزها يظل جميع افرادها مدة اسبوعين يبكون وينتحبون ويلطخون وجوههم واجسامهم بالطين • وتعتقد العشائر الاسترالية ان مجرد لمس رمز « الشورنجا » يشفي لامسها من جميع الامراض والجروح ويعتقدون كذلك ان حملها يهب الفرد قوة خارقة ، حتى ان المحارب اذا رأى خصمه يحمل « شورنجته » تخور قواه ويستسلم له •

مشاركة الافراد للطوطم في طبيعته وقدسيته :

ذكرنا فيما تقدم بان افراد العشيرة الطوطمية يعتقدون بان طوطمهم هو سلفهم الاول وعليه يكونون هم والطوطم من طبيعة واحدة • فالعشيرة

---

(١٦) الدكتور علي عبدالواحد وافي — الطوطمية اشهر الديانات البدائية ، ص ١٥ •

التي تتخذ الارنب طوطما لها مثلا يلقب كل فرد من أفرادها باسم الارنب ويعتقد في نفس الوقت بانه أحد أفراد هذه الفصيلة الحيوانية • ولما كان أفراد العشيرة مشتركين مع طوطمهم في طبيعته فهم كذلك يشتركون معه في قدسيته • اذ كل فرد يعتقد انه يحمل في داخله شيئا من قدسية الطوطم الذي تنتمي اليه عشيرته • وهذه القدسية منتشرة في جميع اجزاء الجسم ، ولكنها اظهر ما تكون في نظر هذه العشائر في دم الانسان وشعره • ولذا كانت الدماء والشعور من أكثر عناصر الانسان استخداما في الطقوس والشعائر الدينية • وكانت عملية حلق الشعر تعتبر مسألة دينية مهمة وتحاط بكثير من الطقوس والمراسيم • وكان يجب على الشخص الذي تجري له عملية حلق الشعر ان يولى وجهه شطر الجهة التي تعتقد عشيرته أنها مقر الاصول الاولى لطوطمها •

هذا وان افراد العشيرة الواحدة لا يتمتعون بقدسية متساوية فالرجال مثلا اكثر قدسية من النساء، بل ان النساء يعتبرن من بعض الوجوه مجردات من القدسية ، وغير المعمدين من الذكور يعتبرون كذلك مجردين من القدسية • أما كبار العشيرة وشيوخها وسحرتها واطباؤها وكهنتها فهم يعتبرون أكثر قدسية من غيرهم ، حتى انه ليباح لهم ما لا يباح لغيرهم حيال الطوطم ورموزه •

نظام الاسرة والقرابة :

لقد ذكرنا بان القرابة عند أفراد العشيرة الطوطمية تقوم على أساس الاشتراك في الطوطم فقط وليست قرابة قائمة على صلات الدم ، فالعشيرة الطوطمية يمثل أفرادها اسرة واحدة ، أي بمعنى ان جميع الذكور اخوة فيما بينهم والاناث كذلك • أما النسب عندهم فهو قائم على ثلاثة نظم ، الاول هو النظام الامي وفي مثل هذا النظام يلتحق الطفل بأمه ويعبد طوطم عشيرة امه ، واما ابوه وافراد اسرة أبيه فيعتبرون أجانب عنه لا تربطه بهم اية رابطة من روابط القرابة ، بل كانت توجب عليه التقاليد قتالهم اذا اعتدى احدهم على أفراد اسرته حتى لو كان المعتدي أباه نفسه • والنظام الامي هو السائد عند معظم العشائر الاسترالية • ومن الامور اللطيفة التي يمكننا ذكرها في هذا المجال هو ان الباحثين قد وجدوا بان هناك عداءً كبيراً بين الزوج والحماة ضمن العشائر الطوطمية التي تتبع النظام الامي في النسب • وهذا العداء يبلغ من الحدة بحيث لا يجوز ان يرى أحدهما الاخر • واذا تقابلا في الطريق صدفة يجب ان يخفي كل منهما نفسه خلف حاجز ما كي لا يرى الاخر • واذا تطلبت الظروف ان يتحدثا فيجب ان تتم المحادثة وكل منهما في مكان لا يستطيع ان يرى الاخر منه • واسباب هذه الظاهرة وبقية الظواهر سنشرحها بعد ان يتم هذا العرض المختصر لطبيعة النظام الطوطمي • والنظام الثاني في النسب هو النظام الابوي والمقصود به هو ان الطفل يلتحق بأبيه ولا علاقة له بأمه وبعشيرتها • ويعتقد البعض ان العشائر التي تسير على النظام الابوي كانت في الاصل تتبع النظام الامي اذ نجد في العشائر ذات النظام الابوي ان يحرم على الولد ان يأكل من لحم طوطم امه او يمسه بأذى • والنظام الثالث هو النظام المحلي والمقصود به ان الطفل لا ينتسب الى طوطم امه أو

أبيه بل ينتسب الى طوطم المكان الذي احست فيه الام لاول مرة بتحركه في بطنها وهو جنين • اذ كان للامكنة عند العشائر الاسترالية طواطمها الخاصة ، فاذا احست الام حركة جنينها في مكان طوطمه الثعلب مثلا أصبح الثعلب طوطم الطفل بعد ولادته وعليه ان يلتحق بالعشيرة التي تنتمي الى هذا الطوطم •

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو ان صنف الذكور في بعض العشائر الطوطمية يتخذ لصنفه طوطما خاصا به ولصنف الاناث طوطم خاص كذلك •

الزواج عند العشائر الطوطمية :

لقد جرت العادة عند العشائر الطوطمية ان حرمت الزواج بين الاقارب تحريما باتا ومن يخالف هذه القاعدة يقتل • وقد امعنوا في التحريم بحيث لا يجوز ان تحدث أية علاقة عاطفية بين الاقرباء حتى ولو كانت عابرة[١٧] ، وكل فرد من أفراد العشيرة ملزم بتنفيذ عقوبة من يشذ على هذه القاعدة• ولذا فقد انتظمت العشائر الطوطمية في نظام منسق كي يتم تطبيق التحريم بين الاقارب من جهة وان يصبح الزواج ممكنا ضمن القبيلة الواحدة من جهة اخرى • وهذا النظام المنسق يتمثل بان القبيلة الواحدة تتألف من اتحادين وكل اتحاد يتألف من عدة عشائر وهذه العشائر التي يتألف منها الاتحاد الواحد تنقسم الى طبقتين زواجيتين كما هو موضح في المخطط التالي :ـ

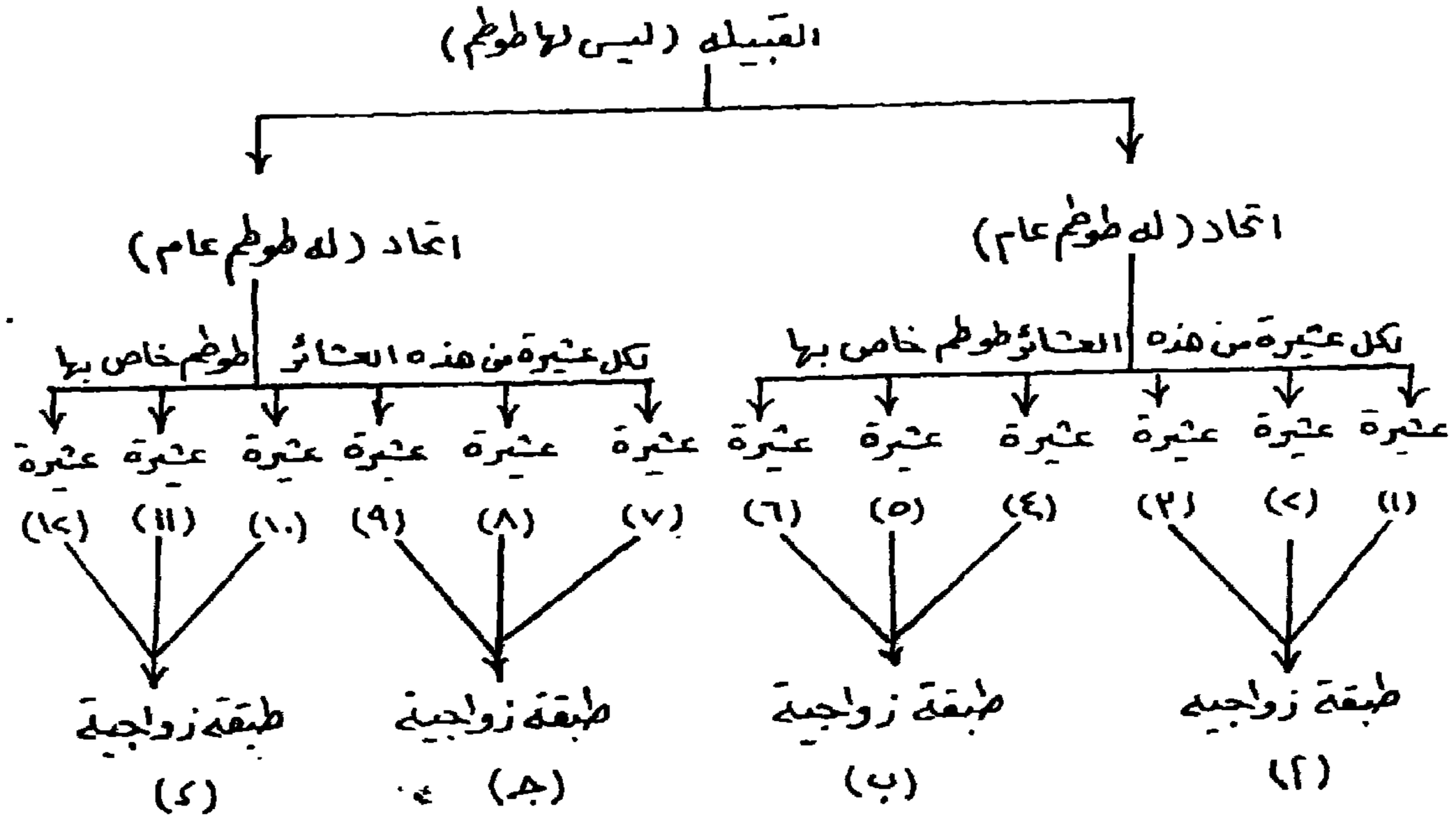

---

(١٧) Bücher des Wissens, S. Freud, Totem and Tabu, p. 11.

والان لنفرض ان رجلا من العشيرة رقم (١) أي من الطبقة الزواجية (أ) ويتبع في النسب النظام الامي قد تزوج امرأة من العشيرة رقم (١٢) أي من الطبقة الزواجية (د) فالطفل الناتج وحسب نظام تحريم الزواج من الاقارب لا يحق له الزواج من أية عشيرة من عشائر الاتحاد الذي تنتمي اليه امه لانهم جميعا أقرباؤه ما داموا مشتركين في الطوطم العام للاتحاد • واضافة الى ذلك فقد نص مبدأ التحريم ان لا يجوز له الزواج كذلك من احدى الطبقتين الزواجيتين التي يتألف منها الاتحاد الاخر، ولنفرض هنا ان الطبقة المحرمة عليه هي طبقة والده أي الطبقة الزواجية (أ) فالمجال المسموح له الزواج منه في هذه الحالة هو الطبقة الزواجية (ب) فقط • ونفس الشيء يطبق بالنسبة للطفل الذي سيتولد من هذه الزيجة •

والان وبعد ان عرضنا ملخصا لطبيعة نظام العشائر الطوطمية علينا ان نبين الاسباب الموجبة لتقاليد هذه العشائر وخاصة الاسباب التي دفعتها لعبادة الطوطم ، اذ في الاجابة على هذا السؤال نكون قد وضحنا كيف نشأ الدين في حياة الانسان وما هي الاسباب الموجبة لذلك •

نشأة الطوطم :

السؤال الذي يطرح نفسه عند الحديث في هذا المجال كيف يمكن لهذه العشائر البدائية ان تعتقد بان هناك رابطة وثيقة بينها وبين معبوداتها من الحيوانات والنباتات والجمادات وتؤمن بهذا الاعتقاد الذي يمثل جوهر ديانتها رغم ان واقع الحال لا يؤيد وجود أية علاقة ذاتية كانت تربط بين الانسان وبين ما من حوله من حيوانات ونباتات لا في الماضي ولا في الحاضر • هذه الناحية بالذات دفعت كثيراً من الباحثين الذين درسوا أحوال هذه العشائر الطوطمية الى تقديم التفسيرات التالية لمثل هذه العلاقة :

١ ــ اقدم الاراء عن نشأة الطوطم :

أقدم من كتب عن نشأة الطوطم شخص يدعى (Garcilaso del Vega) وهو أحد افراد العائلة الحاكمة في بيرو حيث كتب هذا الشخص في القرن السابع عشر مخطوطا عن تاريخ شعبه وذكر في هذا المخطوط ما يعتقده عن نشأة الطوطم فقد أشار في هذا الخصوص بان العشائر كانت في الاصل بأمس الحاجة الى الاسماء وذلك من أجل ان تميز كل عشيرة نفسها عن العشائر الاخرى ولذا فقد اقتبست هذه العشائر اسماءها من اسماء الحيوانات أو النباتات • وبعد مضي قرن على تاريخ الرأي الذي قدمه (G. del Vega) تقدم (A. K. Keane) واخرين برأي مماثل عن نشأة الطوطم[١٨] •

٢ ــ نظرية سيرجون لوبتوك (Sir John Lubbock)

يعتقد هذا الباحث الذي صار اسمه فيما بعد (Lord Avelury) بان كثيرا من أسمائنا نحن البشر مأخوذة من اسماء الحيوانات وهذه الاسماء المقتبسة من الحيوانات صارت فيما بعد اسماء للعشائر وذلك عن طريق اسماء رؤسائها • ويقول

---

(١٨) S. Freud, Totem und Tabu, p. 124.

« لوبوك » بعد ان بلغت اسماء الحيوانات هذه المرحلة التي تحولت اسماؤها الى رموز للعشائر اتجه اليها الاحترام اولا والتقديس فيما بعد .

والانتقاد الذي وجه الى هذه النظرية تقدم به « فيزون – Fison »[١٩] ومفاده بان الطوطم لم يكن في يوم من الايام اسما لفرد واحد وانما كان باستمرار علامة مميزة لمجموعة من الناس . ولو كان الحال على ما يعتقد به « لوبوك » فكيف ينتقل اسم الاب الى ابنائه والعشائر الاسترالية تتبع النظام الامي في النسب . وبهذا يود « فيزون » ان يبين بان اسماء الافراد لم تكن لها علاقة برمز العشيرة ، وعليه فان رمزها أي طوطمها لا بد وان جاء عن طريق اخر .

٣ – نظرية « لانك – A. Lang

كان يميل هذا الباحث لفترة من الزمن الى الاعتقاد على ان الطوطم قد اتخذ في الاصل كرمز للعشيرة فقط[٢٠] . الا انه قد أهمل فيما بعد هذا الاعتقاد واخذ لا يناقش في الكيفية التي تحولت فيها اسماء الحيوانات الى رموز للعشائر الطوطمية لانه يعتقد بان هذه العشائر نفسها تجهل السبب الذي جعل من الحيوانات رموزا لها . ولذا فانها قد آمنت بالامر الواقع وحاولت في نفس الوقت ان تجد المبرر لهذه الناحية ، لان اختيار الاشخاص أو العشائر قديما وحديثا لاسمائها لا يأتي اعتباطا بل يعار للاسم اهتمام كبير لما له من تأثير كبير في نفسية حامله وعلى شخصيته أيضا . ولهذا السبب يعتقد « لانك » بان هذه العشائر وهي تحاول تبرير واقع رموزها افترضت ان كان بينها وبين طواطمها في الماضي رابطة متينة ، وما دامت رابطة الدم هي من اقوى الروابط فصار لديهم الاعتقاد بانهم لا بد وان ارتبطوا في الماضي مع هذه الحيوانات الممثلة لطواطمهم برباط الدم . ولهذا السبب حرم عليهم ذبح الطوطم او قتله أو ايذاءه . ويعتقد « لانك » ان هذه الناحية بالذات أي اعتقاد العشيرة ان كانت في الماضي بينها وبين طوطمها رابطة الدم ، هي التي تسببت كذلك في تحريم الزواج من الاقارب[٢١] .

٤ – نظرية « دورك هايم – Durkheim »[٢٢]

ان هذا الباحث قد استنتج نظريته من ملاحظته بان الكائنات التي يتجه اليها التقديس في الديانة الطوطمية سواء في ذلك الطوطم نفسه أو الرموز التي تدل عليه ، تجمع بينها صفة مشتركة وهي انها أي الطواطم ورموزها مظاهر للعشيرة نفسها وانها عبارة عن رموز تشير الى العشيرة . فالطوطم هو لقب العشيرة ، وطبيعته من طبيعتها ، والرسوم

---

(١٩) Fison, Kamilaroi and Kurnai (1880), p. 165.

(٢٠) A. Lang, The secret of the Totem, 1905, p. 34.

"No more than these three things-a group animal name of unknown origin; belief in a transcendental connection between all bearers, human, and bes-

tial, of the same name; and belief in the blood superstitions-was needed to give rise to all the totemic creeds and practices, including exogamy" (The Secret of the Totem, p. 126).

(٢٢) A. Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse. Le système totémique en Australie, 1912.

الخاصة به ترمز اليها • فالتقديس لا يتجه اذن الى هذه الاشياء الا لانها رمز للعشيرة ، وبعبارة اخرى: ان تقديس هذه الاشياء هو في حقيقة الامر تقديس للعشيرة نفسها • فالطواطم ورموزها اذن هي بمنزلة الاعلام التي تتخذها أممنا الحديثة رمزا لها • فكما ان تقديسنا وتعظيمنا لعلم بلادنا هو في حقيقة الامر تقديس وتعظيم لما يرمز اليه هذا العلم ، أي تقديس لامتنا ومجتمعنا ، كذلك كان شأن البدائيين حيال طواطمهم • فالاله الذي يتجه اليه التقديس في الديانة الطوطمية هو العشيرة نفسها أو المجتمع نفسه مرموزا اليه ببعض رسوم وبعض حيوانات أونباتات•

ويرى دورك هايم ان هذا النظام قد انبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعي ، وانه حقق فوائد اجتماعية ذات أهمية كبيرة • فالحياة الاجتماعية لا تستقيم الا اذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواهيه موضع تقديس الافراد واجلالهم• والنظام الطوطمي كان وسيلة لتمرين الافراد وترويضهم على هذا التقديس والاجلال ، لتقوى أواصر ارتباطهم بمجتمعهم ، وتسهل قيادتهم للحياة الاجتماعية وما تفرضه من نظم وتضعه من قواعد تتعارض في كثير من مظاهرها مع أهواء الافراد ورغباتهم •

ويرى دورك هايم ان الطوطمية تمثل اقدم ديانة انسانية وذلك لارتباطها بأبسط تكوين اجتماعي وهو تكوين العشيرة واعتبر المجتمع اول اله عبده بنو الانسان(٢٣) •

هذا مع العلم بان • رايناخ S. Reinach قد سبق دورك هايم في طرح فكرة مماثلة عن عبادة الطوطم(٢٤) •

والنقص الموجود في هذه النظرية انها لم تبين لنا الاسباب الموجبة التي دفعت هذه العشائر البدائية لاتخاذ بعض الحيوانات أو النباتات كشعارات لتكويناتها الاجتماعية •

٥ ـ نظرية « هدون ـ A. C. Haddon »(٢٥)

يفترض هذا الباحث بان العشائر الطوطمية كانت قبل ان تحصل على رموزها تتغذى على نوع واحد من أنواع الحيوانات او النباتات أو انها كانت تتاجر بنوع واحد منهما • ونتيجة لذلك كانت تسمى العشائر بعضها البعض باسم ذلك النوع الذي كانت تتغذى عليه او تتبادل به مع العشائر الاخرى• ويسند « هدون » رأيه هذا بان الغذاء كان من أهم العناصر بالنسبة للانسان القديم ولا غرابة في ان يتحول اسمه الى اسم العشيرة التي تتعامل به• ونتيجة تعامل العشيرة بنوع واحد من أنواع الحيوانات او النباتات صار بينها وبينه نوع من الالفة وتم التقديس ما دام وجود هذه العشائر يعتمد على ذلك النوع فقط •

---

(٢٣) الدكتور عبدالواحد وافي ، الطوطمية اشهر الديانات البدائية ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ • وانظر كذلك نشأة النظام الاجتماعي وتطوره من العشائر الى الامبراطوريات ، تاليف آ • موري وج • دفي ، ترجمة الدكتور عبدالعزيز برهام ومراجعة الدكتور محمود قاسم ، ص ٩٣ ـ ٩٥ •

(٢٤) S. Freud, Totem und Tabu, p. 127.

(٢٥) A. C. Haddon, Address to the Anthropological section, British Association, Belfast, 1902; S. Freud, Totem und Tabu, p. 127.

والاعتراض الذي وجه لهذه النظرية يعتمد على ان الدراسات الخاصة باحوال العشائر الطوطمية لم تشر ولم تؤكد على ان العشائر المذكورة كانت تتبادل أو تتغذى على نوع واحد من أنواع الحيوانات أو النباتات • ويضيف « زكموند فرويد » على ذلك : اذا صحت نظرية « هَدّون » بان العشائر الاولى كانت تتغذى فعلا أو تتاجر بنوع واحد من أنواع الحيوانات أو النباتات ، فكيف يمكننا ان نعلل بشكل مقنع تحول هذه الناحية الى عبادة متكاملة •

٦ ــ نظرية « تايلر » و « ويلكن » (٢٦)

ومفاد هذه النظرية ان الديانة الطوطمية منشعبة عن عبادة ارواح الموتى • حيث يرى «تايلر» و « ويلكن » ان هذا الانشعاب قد نشأ عن طريق ما يعتقده كثير من الشعوب البدائية من امكان تناسخ الارواح وحلولها في غير اجسامها الاولى • فأرواح السلف كانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم ، وكانت في مبدأ امرها قائمة بذاتهامنفصلة عن الاجسام • ثم اخذ الاعتقاد بتناسخ الارواح يتدخل شيئا فشيئافي هذا الموضوع حتى انتهى الامر ببعض الشعوب البدائية الى الظن بأن هذه الارواح قد حلت في أجسام بعض الحيوانات أو بعض النباتات • فأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقرا لارواح السلف من الاباء والاجداد ، واتجه اليها التقديس • ولكنه كان يتجه اليها هي بالتبعية ، ويتجه بالاصالة لما تتقمصه من أرواح • ومع تقادم العهد تنوسي هذا الاصل ، وأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات والجمادات مقدسة لذاتها ، فنشأ من ذلك ما نسميه بالنظام الطوطمي •

وقد اورد « تايلر » و « ويلكن » لتأييد نظريتهما هذه عدة شواهد اقتبساها من ملاحظة بعض الظواهر الدينية في جزر جاوه وسومطرة وميلانيزيا • اذ في بعض هذه الجزر يقدس الناس التماسيح ويقدمون لها القرابين ، ويعللون مسلكهم هذا بأنهم انما يقدسون أرواح السلف التي حلت في هذه الحيوانات •

وفيما يخص هذه النظرية اعتقد انها لم تقدم التفسير المقنع لنشأة الطوطم بل أنها عرضت لنا فقط وجهة نظر بعض سكان جزر جاوة وسومطرةالذين عللوا تقديسهم القرابين للتماسيح نابع من تقديسهم لارواح السلف التي حلت في هذه الحيوانات • وعدم اقتناعي بهذه النظرية يرجع الى ناحيتين : الاولى لم توضح لنا النظرية المذكورة ما هيالمبررات الحقيقية لعبادة أرواح السلف ، اذ حتى لو كان ذلك حقا لا بد وان أرواح السلف قد تركت للاجيال التالية لها ما يبرر عبادتها ولذا علينا ان نوضح ذلك لنكون على بينة من الاسباب التي ادتالى عبادة أرواح السلف • هذا جانب والجانب الاخر،

---

(٢٦) المصادر الاصلية الخاصة بشرح هذه النظرية هي :

V.Tylor, Civilization Primitive I, p. 465; II p. 305; Wilken, Het Animisme bij den Volken von den indischen Archipel, p. 69-75.

واضافة الى ما تقدم من مصادر فان ملخص نظرية هذين الباحثين التي اوردتها منشورة في نفس المصدر السابق للدكتور عبدالواحد وافي ص ٩٥ ــ ٩٦ •

أفراد أي جيل من الاجيال التي سبقت هذهالشعوب البدائية قد نالوا هذا التقديس ؟ هـل هم أفـراد الجيل الذي يمثل الاصول الاولى للبشرية أمالجيل العاشر أم المليون ؟ اذ حتى لو كان بأمكاننا تحديد الجيل علينا كما قلت بيان الاسباب الموجبة لذلك • والناحية الثانية هو ان النظرية لم تبين لنا ما هـو الواقع والسبب الملموس الذي يجعل العشيرة التـي طوطمها الثعلب مثلا ان تعتقد بان روح سلفها قـد حلت في جسم الثعلب دون غيره من بقية الحيوانات أو النباتات أو الجمادات • فالنظرية لم توضح لنـا ما هي العلاقة بين أرواح السـلف والطواطم التي تحـل فيهـا •

٧ ــ نظرية جيفونس(٢٧)

يعتقد « جيفونس » بان الديانة الطوطمية قـد انشعبت عن عبادة مظاهر الطبيعة • وذلك ان الانسان البدائي ، تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهـر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد ، حرص عـلى التقرب الىبعضها ليتقي شرها ويضمن نفعها ،ويستدر عطفها عليه • ولم يكن ثمة وسيلة للتحالف وعقـد الذمة غير وسيلة القرابة • فالقرابة وحدها هي التي كانت في الشعوب البدائية تحقق التضامن والتكافـل والامن والسلام • فقد كان أفراد العشيرة الواحدة أولياء بعضهم لبعض لصلة القرابة التي كانت تجمع بينهم ، على حين أنهم كانوا ينظرون لغير اقربائهـم نظرتهم الى خصوم واعداء • ولذلك اصطنع العقـل البدائي صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة •

ولم يقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد ، وانماأقامها بين العشائر الانسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة اخـرى • وذلـك لان العشيرة هي التي كان لها وجود دائم قوي في العقلية البدائية ، أما الافراد فلم يكن لهم وجود يعتد به • فنظرة البـدائي الى عـالم الحيوان والنبات والجماد نظرته الى عالم الانسان ، فلم يعتد بأفراد هذاالعالم، وانما اعتد بفصائله وأنواعه وعمد الى هذه الفصائل والانواع فربطها بعشائره بوشيجة القرابة ولحمـة النسب •

والانتقاد الخاص بهذه النظرية والـذي اجـده مناسبا جدا هو الذي عرضه الدكتور عبدالواحـد وافي في كتابه المشار اليه فيما سبق ، ومفاده : لو كان فعلا الغرض من الطوطمية ان يتقرب الانسان الى بعض مظاهر الطبيعة ليتقي شرها ويضمن نفعهـا ويستدر عطفها عليه ، لعقد هذه الصلة بينه وبيـن أكبر هذه المظاهر قوة واشدها بطشا واثارة للرهبة والخوف في نفس الانسان ، مع ان الواقع انّ معظم الطواطم تتألف من نباتات وحيوانات ضعيفة لاترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الانسان •

ولو كان الهدف الذي تقصد اليه العشائر مـن الطوطمية ان تكون وسيلة للافادة من مظاهرالطبيعة ولاتقاء شرها ، لعملت كل عشيرة جهدها عـلى ان تعقد هذه الرابطة مع أكبر عدد ممكن من هـذه المظاهر ، حتى تضمن أكبر قدر من النفع ، ويزداد مبلغ اطمئنانها في حياتها ، وتكثر وسائل وقايتهـا

---

(٢٧) V. Jevons: Introduction to the history of Religion, p. 96.

وانظر كذلك حول ملخص نظرية هذا العالم ، الدكتور عبدالواحد وافي ، الطوطمية اشهر الديانات البدائية ص ١٠٠ ــ ١٠١ •

من الاخطار ، مع ان الواقع ان الطوطمية تقوم على اساس أن كل عشيرة لا يكون لها الا طوطم واحد فحسب •

٨ ـ نظرية جيمس فريزر

لقد طرح هذا العالم ثلاث نظريات حول نشأة الطوطم واولى هذه النظريات الثلاث تولدت لديه نتيجة ملاحظته لاعتقاد العشائر الطوطمية بالارواح، اذ افترض بخصوص ذلك ان الانسان البدائي قد حاول حفظ حياته بعيدا عن الاخطار التي يواجهها اثناء الحياة فعمد الى حفظ روحه في جسم حيوان معين ليصبح بعد ذلك محصنا ضد الاخطار وبطبيعة الحال كان عليه نتيجة ذلك ان يحفظ الحيوان الحامل لروحه • واعتقد « فريزر » بان هذا الانسان البدائي كان لا يعرف أي حيوان بالذات يحمل روحه لذلك عمد الى الاهتمام وحماية فصيلةالحيوان وليس فرد واحد من أفرادها[٢٨] •

الا ان « فريزر » ابطل بنفسه هذه النظرية وخاصة بعد ان اطلع على الدراسة التي تقدم بها كل من « سبنسر » Spencer و « كلن Gillen تلك الدراسة التي احتوت على وصف مسهب لعادات وتقاليد عشائر الاورنتا الساكنة أواسط استراليا • واعتقد « فريزر » مع الباحثين المذكورين بان أحوال عشائر الاورنتاتمثل الاصول الاولى لنشأة الطوطم ، وتصور نتيجة ذلك بان عادات هذه العشائر تمكنه من ان يتعرف على الاسباب الموجبة لنشأته • وابرز عادات العشائر المذكورة لخصت بما يلي :ـ

أ ـ ان أفراد الاورنتا لم يحرموا الزواج من الاقارب بشكل مطلق ولكنهم حددوه بنظام الطبقات الزوجية (التي سبق وان تحدثنا عنها)، اذ الطبقة الزواجية التي يسمح للفرد ان يتزوجمنها هي في واقع الحال تقرب له كذلك من ناحية ارتباطهم جميعا بالقبيلة • وتحديد الزواج هذا بنظر الباحثين المذكورين لا علاقة له بالطوطم •

ب ـ ان أفراد الاورنتا قد انتظموا على شكل عشائر طوطمية ومع هذا التنظيم الاجتماعي فانالطفل الذي يولد يحصل على طوطمه بنفسه (انظر الفقرة الاتية «د») •

ج ـ من واجبات عشائر الاورنتا الرئيسةهي ان تمارس كل منها الطقس السحري المدعو « انتيخيوما ـ Intichiuma »، اذ من خلال هذا الطقس السحري تحاول العشائر المذكورة الاكثار من الطواطم التي تؤكل •

د ـ تعتقد عشائر الاورنتا بان الارواح يمكن ان تولد ثانية وافترضوا نتيجة ذلك بان أرواح الافراد المتوفين تنتظر في أماكن معينة من بلادهم لتحل في ارحام النساء التي تمر بتلك الاماكن ولذا فعلى المرأة التي تلد طفلا ان تبين اسم طوطم المكان الذي تعتقد أنها قد حملت به • وبعد ذلك يصبح الطفل من عشيرة طوطم ذلك المكان •

ناحيتان مما تقدم هي التي دفعت فريزر الى الاعتقاد بان عادات الاورنتا تمثل الاصول الاولى لنشأة الطوطم ، الاولى هو وجود بعض الاساطير التي تشير الى ان أرواح السلف كانت تتغذىبانتظام

---

(٢٨) Sir James Frazer, The Golden Bough II, p. 332.

من طواطمها فقط أي من طوطم العشـــيرة التـــي تنتسب اليها هذه الارواح وكذلك لا يتزوجون الا امرأة من نفس طوطمهم • والناحية الثانية هو عدم معرفة هذه العشائر بالكيفية التي يتولد فيها الجنين•

وبعد تبلور هذا الاعتقاد لدى « فريزر »تمسك بطقس « الانتيخيوما » من اجلايضاح نشأة الطوطم• اذ يعتقد بان هذه العشائر قبل ان تصبح عشـــائـر طوطمية كانت كل منها متخصصة بأكثار نوع معين من أنواع الحيوانات أو النباتات بأساليب سحرية • ونتيجة هذا التخصص رأت أنها تسير وفق نظـــام يوحدها ويساعد على زيادة المواد الضرورية للحيـاة فتمسكت به لان نفعه يعم على الجميع (انظر نظرية « هَدّون ») ، فتحول نتيجـة ذلـك الحيـوان أو النبات الذي كانت كل عشيرة مسؤولة عن اكثـــاره طوطما لتلك العشيرة •

أما سبب امتناع العشائر الطوطمية عن أكـــل طواطمها الا في المناسبات فيعتقد « فريزر » بان هـذه العشائر التي تحولت بسبب طقس « الانتيخيوما » الى عشائر طوطمية كانت في السابق تأكل طواطمها دون حرج ولكنها رأت فيمـا بعـد بان الحيوانـات لا تأكل من هو من فصيلتها ، ولهذا السبب امتنعت هي كذلك عن أكل طواطمهـا ما دامت كل عشيرة وطوطمها يعتبران من فصيلة واحـــدة • وفي نفس الـوقت فـــان هـذا الامتناع يســاعد على ان توفر كل عشيرة طوطمها كمادة غذائية للعشائر الاخرى، اذ في هذا التصرف تحقيق للهدف المرجو مـــن طقس « الانتيخيوما » • اذ حتى العشائر التي كانت طواطمها من النوع الذي لا يؤكل مثل الحيـــوانات الضارّة أو انها مظهر من مظاهر الطبيعة كان على هذه العشائر مراعاة مثل هذه الطواطم بأساليبها السحرية بالشكل الذي تتفادى به خطر أو ضرر هذه الطواطم على العشائر الاخرى •

هذا ويضيف فريزر الى نظريته هذه تفسيره للسبب الداعي الى تحريم الزواج مـن الاقارب ، فيقول بخصوص ذلك ، ما دامت أرواح الســـلف حسب اساطير «الاورنتا » كانت تتغذى على طوطـم العشيرة التي تنتسب اليها الروح ولا تتزوج امـرأة الا من نفس العشيرة فان هذا يعني بان العشائر قبل ان تمتنع عن أكل طواطمها كانت لا تحرم الزواج من الاقارب ولكن امتناعها عن أكل طواطمها للسبب الذي ذكرناه تسبب كذلك في تحريم الزواج مـــن الاقارب •

والنظرية الثالثة والاخيرة لفريزر جاءت بعـد ان لاحظ بان نظام الانتيخيوما لا يمكـــن ان يمثل الاصول الاولى للمجتمعات البشرية لما فيه من تنظيم منسق ، فجاء بفكرة ثالثة محورة ولكنها مـع هـذا تستند في مضمونها على الفقرة (د) من عادات وتقاليد الاورنتـا •

ومفاد نظريته الثالثة هو ان فريزر قد اعتقـد بان المرأة هي التي تسببت في نشأة الطوطم • وفسر ذلك بـان المرأة في الماضي السحيق لم تكن تعرف جيدا من الذي يتسبب في خلق الجنين في جوفها ، ولذا فعندما تتحسس حركة جنينها في جوفها تعتقد ان ما أثار خيالها أو اهتمامها لحظة تحرك الجنيـن هو الذي حل في جوفها وولد الجنين • وما يلـي نص مـــا ذكره فريـزر بهـــذا الخصـــوص :

'Anything indeed that struck a woman at that mysterious moment of her life when she first knows herself to be a mother might easily be identified by her with the child in her womb. Such maternal fancies, so natural and seemingly so universal, appear to be the root of totemism''.

ويذكر « فريزر » بخصوص هذه النظرية أنها تفسر لنا بشكل معقول كل التساؤلات التي اثيرت بخصوص نشأة الطوطم • فهي قبل كل شيء تجيب على التساؤلات الخاصة بموضوع كيف صار ممكنا للانسان ان يعتقد بأنه وحيوان ما أو نبات ما او جماد ما أو مظهر ما من المظاهر الطبيعية من طبيعة واحدة ويشتركان كلاهما بكل شيء • هذه ناحية والناحية الثانية هو انه صار لنا واضحا لماذا تؤمن العشيرة الطوطمية بان طوطمها هو السلف الاول لها ، اذ ما دام الطوطم هو المولد للجنين فأنه والحالة هذه يمثل من دون شك الأصل الاول للعشيرة • هذا وان هذه النظرية تسهل علينا كذلك فهم سلوك الفرد الطوطمي تجاه طوطمه من ناحية الاعتناء به والحفاظ على حياته والامتناع عن قتله أو اكله •

١٠ ــ نظرية فرويد(٣٠)

تعتمد نظرية فرويد على الرأي الذي تقدم به العالم المعروف جارلس دارون الخاص بنوعية حياة الانسان الاول • اذ يعتقد دارون ان الانسان الاول كان يعيش على شكل مجموعات لا تختلف بشيء عن مجموعات القردة العليا التي لاحظها اثناء بحوثه ومشاهداته لمثل هذه الحيوانات • فقد كان لكل مجموعة من مجموعات القردة العليا (الغورلا) رئيس • وكان هذا الرئيس ينفرد في امتلاك اناث مجموعته ولا يحق لاي ذكر من ذكور المجموعة الاتصال بالاناث ، ولهذا السبب كان على القردة الذكور ضمن المجموعة الواحدة أحد امرين أما الخضوع لهذه القاعدة أو ان يحاول كل واحد منهم على انفراد قتل رئيس أية مجموعة اخرى ليحصل على الاناث ويقوم بدور الرئيس • وما دام رأي دارون يشير الى ان حياة الانسان الاول كانت على غرار مجموعات القردة فقد اعتقد فرويد بان أولاد رئيس المجموعة البشرية والذين هم في نفس الوقت يمثلون ذكور المجموعة قد تآمروا مرة على والدهم ورئيسهم لاستحواذه دون غيره على اناث مجموعتهم فقتلوه بتدبير مشترك واكلوا لحمه وعظامه وشربوا دمه سوية وذلك من اجل ان يتشاركوا الذنب من ناحية وان يتقاسموا قوته من الناحية الاخرى • ويعتقد فرويد بان مجموعة الاخوة الذين تآمروا على والدهم قد تعاهدوا بعد اتمام فعلتهم على ان لا يفعل أحدهم بالاخر ما فعلوه بوالدهم وتعاهدوا ايضا على ان يحرموا على انفسهم اناث مجموعتهم كي لا يحدث بينهم الصراع على امتلاكهن • ويرجع فرويد سبب تحريم الزواج من الاقارب بين العشائر الطوطمية الى هذه الناحية بالذات • ويستطرد فرويد في تفسير نظريته هذه فيقول بان هؤلاء الاخوة كانوا يحتفلون بين الحين والآخر بذبح حيوان معين يرمز الى والدهم ويأكلونه سوية وذلك من أجل تجديد فرحة انتصارهم عليه ومن اجل ان يوثقوا

---

(٢٩) Sir James Frazer, Totemism and Exogamy IV, p. 63.

(٣٠) Sigmund Freud, Totem und Tabu, p. 142-179.

ما تعاهدوا عليه • ولذا فان نظرية فرويد تعتمد على ان الطوطم عند العشائر الطوطمية ما هو الا تعويض عن الاب •

وبهذه الفكرة يعلل فرويد السبب الذي دعى العشائر الطوطمية الى الاعتقاد بان طوطمها يمثل سلفها الاول وايمان افرادها بأنهم والطوطم من طبيعة واحدة وليس هذا فقط فهو بهذه الفكرة يفسر ايضا لماذا اعتادت العشائر الطوطمية أكل طوطمها بالمناسبات ولماذا تحزن عليه بعد ذلك •

لم يكتف فرويد بنظريته عند هذا الحد وانما حاول ان يبين سبب اختيار ذكور المجموعة أحد الحيوانات ليعوضون به والدهم • فيقول بهذا الخصوص ان علاقة الطفل بالحيوان في الوقت الحاضر فيها الكثير ما يشابه علاقة ذكور المجموعات البشرية الاولى بالحيوانات التي كانت طواطما لهم •

فالطفل بشكل عام لا يحس باي كبرياء نحو الحيوانات ولم يصنع ما بينه بينهم فاصلا ولا يعتبر نفسه ارقى منها كما يفعل الانسان الناضج• فالطفل يتحدث مع الحيوان كما يتحدث الند لنده ومع هذا فكثيرا ما يحدث ان يبدأ الطفل فجأة يخاف نوعاً واحداً من أنواع الحيوانات(٣١) •

وبخصوص هذه الظاهرة عند الطفل يذكر فرويد بان المختصين قد درسوا هذه الناحية ووصلوا بنتيجة دراستهم الى ان خوف الطفل من أحد أنواع الحيوانات تابع من ان هذا النوع يذكره بوالده الذي اخافه لسبب من الاسباب • اما فرويد نفسه فيفسر هذه الظاهرة بأسلوب اخر مفاده ان الطفل خلال السنين الاولى من عمره يتحسس والده على انه المنافس الذي يزاحمه في التنعم بوالدته، لان الطفل من دون وعي يتوجه برغباته الجنسية التي لا تزال في بداية ظهورها نحو والدته• وهذا الاحساس عند الطفل يولد لديه عقدة كعقدة « اوديب » الذي قتل والده وتزوج امه • غير ان الطفل خلال مراحل نموه يتولد لديه اضافة الى حقده على والده باعتباره مزاحما له في والدته احتراما له واعجابا به • وبسبب وجود هاتين النزعتين في الطفل أتجاه والده يصبح انسانا ذا شخصية مزدوجه •

ويعتقد فرويد بان الطفل وهو في الحالة هذه يحاول ان يجد حلا لازمته فيلقي نتيجة ذلك بكرهه لوالده على أحد الحيوانات ويصنع من هذا الحيوان بديلا عن والده • غير ان ما يفعله الطفل لا يقضي على ازدواجيته بل ينقلها الى ذلك الحيوان الذي عوض به والده • هذا وقد اشار فرويد الى بعض الدراسات التي اكدت على ان الطفل الذي يخاف حيوانا ما يكن له في نفس الوقت احتراما كذلك •

وبهذا التحليل يعتقد فرويد انه قد برهن لماذا عوضت المجموعات البشرية الاولى والدها المتأمر عليه بالحيوان ولماذا كانت تهابه وتحترمه وتمتنع عن ايذائه واكله الا في المناسبات •

والحقيقة ان فرويد يستطرد كثيرا في ايراد البراهين لاثبات نظريته ومن جملة النواحي التي ناقشها هي مسألة تقديم القرابين الى الالهة وحاول ان يبين بان القربان في الديانات التي تلت الطوطمية

---

(٣١) خوف الطفل من احد انواع الحيوانات حالة مرضية نفسية يطلق عليها بالالمانية ـ Tierphabie .

ماهو الا تعويض عن الاله كما كان الطوطم تعويضا عن الاب •

وبخصوص نظرية فرويد هذه لم اتمكن من العثور على أي انتقاد خاص بها ، ولهذا السبب فأنني أقدم في هذا المجال ما ارتأيه أنا شخصيا بخصوص نظريته •

بلا شك ان فرويد قد قدم تسلسلا منسقا لفكرته واسندها على نواحي لها علاقة مباشرة بعلم النفس كاستشهاده بعقدة اوديب • واعتبر الجنس هو المحرك والمسبب الرئيس لظهور الطوطم وظهور عادة تحريم الزواج بين الاقارب • ولكن رغم انني لا أنكر ما للجنس من تأثير بالغ في حياة البشر غير انه كيف يمكننا ان تتصور بان ذكور المجموعات البشرية الاولى قد تآمروا كلهم مرة واحدة على والدهم ورئيس مجموعتهم وكيف صار ممكنا ان يتفق ذكور كل مجموعة على انفراد على قرار واحد مفاده ان يحرموا على انفسهم اناث مجموعتهم كي لا يحدث النزاع بينهم مثلما حدث مع رئيس مجموعتهم • واذا افترضنا بان احدى هذه المجموعات قد قامت قبل غيرها بالمحاولة فعلا وتم لها ما ارادت فكيف يمكننا ان نقبل بان ذكور هذه المجموعة قد حرموا على انفسهم اناثها وبقية المجموعات لا تزال فيها السطوة للرئيس •

في الواقع ان نظرية فرويد يمكن ان تكون مقبولة اذا كان بالامكان التأكد من ان تآمر ذكور المجموعة على رئيسها قد حدث في أكثر من مجموعة مرة واحدة • واذا كان هذا فعلا ما حصل فلا بد وان كان هناك تنظيم واسع يدعو لهذه الثورة في جميع المجموعات مرة واحدة • وهذا بلا شك ما يصعب قبوله •

الاصل في تحريم الزواج بين الاقارب

ان الاراء الخاصة بتحريم الزواج بين الاقارب قد انشعبت الى فرعين ، الاول منهما لا يجد اية علاقة كانت بين التحريم والطوطم ، ومعنى ذلك ان التحريم قد نشأ لاسباب غير دينية • اما الثاني فهو يؤكد على ان تحريم الزواج بين الاقارب نابع من طبيعة عبادة الطوطم ، وان التحريم جزء لا يتجزأ من العبادة الطوطمية • ومن الباحثين المتحمسين للفرع الثاني هو الباحث الفرنسي المشهور « دورك هايم » •

١ ـ نظرية دورك هايم(٣٢)

يرى هذا الباحث ان سبب تحريم الزواج بين الاقارب يرجع الى ما يوجبه النظام الطوطمي من تقديس لبعض الكائنات والاشياء التي يتمثل فيها الطوطم أو يحل فيها شيء من عناصره • وذلك ان كل عشيرة كانت تحيط طوطمها الخاص وجميع الاشياء التي ترمز اليه او تحل فيها مادته بسياج من التقديس • وكانت تسير حيال هذه الاشياء المقدسة وفقا لنظام التابو (اللامساس أو التحريم) فتحظر على الافراد الاقتراب منها أو لمسها الا في ظروف خاصة وبطقوس مرسومة وبعد اتخاذ كثير من وسائل الحيطة والحذر • وكانت العشائر الطوطمية تعتقد ان الطوطم متجسد في كل فرد من أفرادها وحال في عناصره الدموية على الاخص ،

---

(٣٢) انظر الدكتور عبدالواحد وافي ، المصدر السابق ص ٦١ ـ ٦٣

ولذلك كان دم الفرد معتبرا من أهم الاشياء المقدسة، واعظمها حرمة واحقها بالاجلال ، فكان لمسه والتقرب منه محظورين حظراً تاما على جميع أفراد العشيرة • ولما كانت المرأة يخرج الدم من بعض اعضائهـــا بنظام دوري في مواقيت طمثها ، وينبعث في دمهـــا هذا مظاهر الطوطم ، ولمـــا كان قانـــون التابـو (اللامساس أو التحريم) يقضي الابتعاد عن هـــذه المظاهر المقدسة وعدم التقرب الى المواطن التي تخرج منها ، ولما كان الزواج يقضي الاتصال بالمرأة فـي هذه المواطن نفسها ، لذلك حرم التزاوج بين من تجمعهم رابطة قرابة طوطمية وأحل بين الذيـــن لا تجمعهم هذه الرابطة • لان نظـــم التقديســـ والتابو (اللامساس أو التحريم) لا تعمـــل بهـــا العشيرة الا حيال ما تنتمي اليه من طواطم ، أمـــا الطواطم الغريبة عنها فليست ملزمة حيالها بهـــذه الطقوس •

وينظر دورك هايم الى هذه التقاليد الطوطمية على انها الاصل الاول الذي يرجع اليه تحريـــم الزواج بين الاقارب في الانسانية جمعاء ، ويعتقـــد انه مع تقادم العهد بهذه التقاليد تأصلت في النفوس حرمة الزواج بين الاقارب وتناقلها الخلـــف مـن السلف ، ورسخت جذورها في النظـــم الدينيـــة والاجتماعية ، وتنوسي أصلها والاسباب التي دعـت اليها ، فأصبحت مقدسة لذاتها ، وامتد العمل بهـــا في الانسانية حتى بعد انقراض المعتقدات التي قامت عليهـا •

٢ ـ نظرية « لانك ـ A. Lang »(٣٣)

لقد ضم هذا الباحث رأيه الى رأي دوركهايم الخاص بان تحريم الزواج بين الاقارب نابع مـــن طبيعة العبادة الطوطمية نفسها • الا انه لا يؤمن بان قدسية الدم كانت السبب الرئيس في التحريم ، بل سند رأيه على تقليد من تقاليد احدى العشائر التـي كان طوطمها شجرة • اذ كان هذا التقليد يحـــرم على أفراد العشيرة الجلوس في ظل الشجرة الطوطم ولذا يعتقد « لانك » بان تحريم الزواج بين الاقارب نابع من نفس الدافع الذي حرم على أفراد العشيرة الجلوس تحت ظل شجرتهم الطوطم • وما دامـت المرأة تحمل في داخلها قدسية الطوطم فلا يحـــق لرجال عشيرتها الاستئناس بهـا مثلما حـرم عليهـم التمتع بظل شجرتهم الطوطم •

٣ ـ نظرية « ماك لينّان ـ Mac Lennan »(٣٤)

لقد ارجع هذا الباحث ظاهرة تحريم الزواج بين الاقارب الى عادة افترض انها كانت موجودة في الماضي وملخص هذه العـــادة ان الرجـــال كانـوا يحصلون في الماضي السحيق عـلى زوجاتهـم عـن طريق سرقتهم من العشائر الاخرى • وهذه العـادة حسب اعتقاده تحولت الى تقليد حرم على الرجـــل الزواج من نساء عشيرته • ويعتقـد « ماك لينان » ان السبب الذي أدى الى ظهور عادة سرقة النســاء راجع الى قلة عدد النساء قديما ، اذ يفترض بـــان العشائر كانت تقتل الاناث من الاطفال على غـــرار

---

(٣٣) A. Lang, The Secret of the Totem, p. 125.

(٣٤) Mac Lennan, Primitive Marriage (1865).

ظاهـرة وأد البنات التي كانت بارزة فـي الجزيرة العربية اثناء العصر الجاهلي •

٤ ـ نظرية « ويستر مارك ـ Westermarck »(٣٥)

تعتمد نظرية هذا الباحث على ان الاقرباء بالدم يعيشون عادة منذ الصغر في مكان واحد ويكبـرون سوية واي جنسين في اعتقاده يعيشون من الطفولـة حياة مشتركة ينعدم بينهما الاندفاع نحو الاخـر جنسيا • ويضيف الى ذلك بان الزواج بين الاقارب كثيرا ما يترك ضرره في النسل • وللسببين اعـلاه امتنع الانسان البدائي من الزواج من اقاربه ، وهـذا الامتناع تحول بمرور الزمن الى تحريم لا يجـوز تخطيه • والانتقاد الذي وجه الى هذه النظرية تقدم به « سير جيمس فريزر » ومفاده : ما دام الانسان قد امتنع من نفسه عن الزواج من أقربائه بالـدم فلا حاجة والحالة هذه ان يوضع قانون بذلك ،لان الامور التي تأبى البشرية عملها كامتناع الانسـان مثلا من وضع يده في النار لا يوجد بخصوصها أي قانون ولكن القوانين توضع عادة ضد الامور التـي يمكن ان تصدر من البشر وفيها ما يضر المجتمـع كالجرائم وغيرها(٣٦) •

والحقيقة ان انتقاد « فريزر » موجه ضـد الشق الاول من النظرية • أما بخصوص الشـق الثاني الذي ينص على ان الزواج بين الاقارب يترك ضررا في النسل فيقول « فرويد » : ومع ان الانسان في الوقت الحاضر قد قطع شوطا طويلا في ركـب الحضارة فأنه مع هذا غير ملتزم بهذه الناحية ، لان الضرر الناتج عن الزواج بين الاقارب ليس بـارزا بالشكل الذي يدعو لان يوضع قانون بخصوصه •

وفي ختام عرضنا لاراء الباحثين عن الاصـل في تحريم الزواج بين الاقارب علينـا ان نذكـر ما قاله فريزر في هذا المجال ، اذ أفاد ما نصـه : « في الحقيقة لا يمكننا ان نعرف الاصل الذي نشأ عنه تحريم الزواج بين الاقارب • وكل الاراء التي طرحت بخصوص ذلك تبدو لي انها غير مقنعة » •

٥ ـ رأينا في الموضوع

في الاعتراض الذي تقدمنـا به تجاه نظريـة فرويد حول نشأة الطوطم وتحريم الـزواج بيـن الاقارب ذكرت بأنني لا انكر ما للجنس من تأثـير فعال في حياتنا نحن البشر • ولكنني مـع هـذا لا اعتبـره المحـرك الرئيس لكـل نشـاطات الانسان الفكرية منها والمادية بل اعتقد ان الدافع الحقيقـي هو رغبة الانسان الملحة في الخلود وخوفه الغريزي من الفناء • وهذه الرغبة في الخلود والخوف مـن الفناء ولدت فينا القلق وعدم الشعور بالسـعادة الدائمة ، لان الانسان بكل منجزاته الحضارية لـم يتمكن من ان يقدم لنفسه الضمان الاكيد عـلى حياته ، ونتيجة هذا القلق تولدت فينا رغبة في معرفة ما هو في الغيب ورغبة في ان نحصل على ما هـو ليس في حوزتنا وذلك املا منا بان المعرفة الجديدة أو الحصول على ما هو ليس في حوزتنا يساعد عـلى قتل ما في داخلنا من قلق • ولكن ما دام هذا القلق غريزيا فلا يمكن ان تزيله منا أية امنية محققة من

---

(٣٥) S. Freud, Totem und Tabu, p. 138-139.

(٣٦) Sir James Frazer, Totemism Exagamy IV, p. 97.

امانينا نحن البشر • والظاهرة التي رسخت في ذهني الاعتقاد هو ان الانسان أول ما يحاول الحصول عليه هو الغذاء الذي يديمه على قيد الحياة • أما الجنس فيأتي بالدرجة الثانية لانه كذلك الوسيلة الوحيدة التي تحافظ على استمرارية نوعه • واحسن دليل على ذلك ان الفرد منا يفكر في الضمان المادي قبل ان يفكر بالزواج لان العامل الاول يساعد على ضمان العامل الثاني ، فالغذاء من دون جدل يضمن استمرارية النوع بينما الجنس ليس بمقدوره ان يضمن الغذاء ولهذا السبب فان البشرية قديما وحديثا كانت ولا تزال تستغل الجنس بصور مختلفة للحصول من خلاله على الغذاء ضمانة الحياة • وعلى هذا الاساس نعتقد بان الانسان السحيق في القدم كانت تصرفاته الاجتماعية والدينية مبنية كذلك على نفس هذه القاعدة •

والان علينا ان نتصور كيف كان يعيش الانسان القديم وكيف كان يحصل على غذائه ويديم نوعه • مما لا شك فيه ان الانسان القديم كان لا يجيد الزراعة ولا يعرف وسيلة اخرى يكثر بواسطتها مواده الغذائية ما عدا طرقه السحرية البدائية والتي ربماتشأت لديه بعد ان قضى شوطا طويلا لايعرف فيه حتى السحر • ومعنى هذا انه كان انسانا جماعا للقوت وحياته معتمدة على ما تقدمه له بيئته الطبيعية من مواد غذائية كلحوم الحيوانات والنباتات الصالحة للاكل • والحقيقة ان تصورنا هذا للانسان القديم تصور غير كامل ويحتاج الى ايضاح أوسع ، اذ في قولنا بأنه كان يعتمد في غذائه على لحوم الحيوانات الى جنب النباتات نكون قد اعطينا رأيا مطلقا يحتاج كذلك الى دراسة مفصلة لايضاحه وبيان الاسس التي يقوم عليها اكل اللحم من قبل الانسان القديم •

بلاشك ان أكل اللحم يتطلب ذبح حيوان معين ولنتصور ان الحيوان المتوفر لدى احدى العائلات البشرية الاولى هو الثور أو الجمل كما هو الحال بالنسبة للجماعات الصحراوية • فمما لاريب فيه ان العائلة الواحدة لا يمكنها ان تأكل من لحم الثور أو الجمل أكثر من ربع أو نصف كمية لحمه خلال يوم أو يومين • ونحن نعلم ايضا بان اللحم المتبقي لا يقاوم أكثر من المدة المذكورة ومن ثم يفسد • وهذه الناحية بالذات تؤدي الى تلف كثير في المواد الغذائية لو قامت كل عائلة على انفراد بها ، وربما تؤدي الى انقراض هذا النوع من الحيوانات ما دامت عملية حفظ اللحوم أو بيعها كانت غير ممكنة آنذاك • ولهذا السبب يخيل لي بان الجماعات البشرية بعد ان مرت بتجارب واقعية وكثيرة في هذا المجال بدأت تتحسس خطر هذه الناحية على الحيوانات فحرمت ذبحها من قبل العوائل أو الاشخاص بشكل منفرد • اذ حتى لو كان الانسان القديم حسب الفكرة التي طرحها جارلس دارون كان يعيش فعلا على شكل مجموعات لا تختلف عن مجموعات القردة العليا والتي سبق وان تحدثنا عنها ، فان هذه المجموعات بسبب ما ذكرنا كانت لا تسمح كذلك للافراد بذبح الحيوان بصورة كيفية وانها بالذات لا تذبح منه أكثر من حاجتها وليس باستمرار • وسبب ذلك يعود الى عاملين الاول هو ان ترك الحيوان يساعد على تكاثره وذلك على عكس النباتات ، والعامل الثاني هو لو أكل الانسان باستمرار من لحوم الحيوانات أوقف

بذلك تكاثرها وربما يتسبب ذلك في انقراضهـا • ومما يؤيد رأينا هو ممارسة عشائر الاورتنا الطقس السحري المدعو « انتيخيوما » •

وتيجة ما تقدم صارت عملية ذبح الحيوانات الكثيرة اللحم من مسؤولية الجماعات البشرية الاولى أو العشائر فقط • فالعشيرة وحدها هي التي تقـرر ذبح الحيوان • ومن التقاليد المتأخرة تبين بان مثل هذه الحيوانات كانت تذبـح في المناسـبات فقط ويشترك جميع أفراد العشيرة في الاكل ومن الامثلة على ذلك نجد بان العشائر البدوية حتى الوقـت الحاضر لا تذوق اللحم الا في المناسبات • والحقيقة اننا لو نظرنا بعيدا لوجدنا حتـى الحيـوانات في الطبيعة قد صنفت نفسها بشكل لا يدع مجـالا ان تذهب كميات من غذائها تلفا •

هذا ويبدو ان الجماعات البشـرية الاولى أو العشائر عندما حرمت على العوائل أو الافـراد ذبح الحيوانات قد قدمت لذلك المبررات ومن جملة تلك المبررات ان اعتبرت جميع الحيوانات مقدسة[٣٧] ، وذبحها يعتبر جريمة بحق قدسيتها وبحق المجتمع• ولهذا السبب نجد ان قتل الثور عنـد اليونـانيين القدماء كان يعتبر جريمة •ففي العيد الشعبي عند الـ Bouphanien كانت تعقد جلسة بعد ذبح الثـور المضحى بمناسبة العيد المذكور للنظر في الجريمـة المرتكبة ، وبعد نقاش يصدر القرار عن الجلسـة بان السكين التي ذبح بواسطتها الثور هي المجـرم الحقيقي ولذا فأنها كانت ترمى في البحر بعد اصدار الحكم[٣٨] •

ومما تقدم صار لنا واضحا بان أفراد العشيرة الواحدة يأكلون اللحم في المناسبات فقط ومن مصدر واحـد ولهذا السبب فقد نما عندهم الشعور عـلى أنهم جميعا يتكونون من مادة واحدة وتولد عندهـم التقليد القاضي بان الاشتراك في طعام واحد يولـد الاخوة وان الاخوة لا تنشأ عندهم الا من خـلال الاكل من مصدر واحد •والذي يؤيدهذا الافتراض هي ما لدينا حتى الوقت الحاضر مثل هذا التقليد ، اذ ان الام التي ترضع طفلا من غير أطفالها الحقيقيين يصبح هذا الطفل اخا لاطفالها وذلك لانه شـاركهم الغذاء من مصدر واحد • فهذا المثل في الواقع دليل واضح على ان عملية الاكل المشتركة كانـت فعـلا وسيلة من الوسائل المهمة في توليد رابطة الاخاء بين أفراد العشيرة • ولهذا السبب نجد بان العادة قـد جرت بين العشائر الطوطمية ان تأكـل من لحـم طوطمها بين الحين والاخر وذلك من أجل شـد الرابطة بين افراد العشيرة من جهة ومن الجهـة الاخرى لتوثيق الرابطة بينهم وبين طوطمهم لان دخول لحم الطوطم في جوف كـل فرد من أفراد العشيرة يعني ان هذا الفرد وطوطمه قد صارا من طبيعة واحدة ومن قدسية واحدة •

فيما تقدم بينا بشكل مفصل تقريبا لماذا كـانت العشائر الطوطمية تأكل طواطمها في المناسبات فقط ولماذا كانت تحزن عليه بعد أكله ، لان الحيوانـات كما بينا كانت محاطة بهالة من القدسيـة قبـل ان تصبح طواطم ، وذبحها كان يعتبر جريمة كما هو الحال عند اليونانيين القدماء • وأوضحنا بان أصـل

---

(٣٧) Freud, Totem und Tabu, p. 153.

(٣٨) انظر « فرويد » نفس المصدر والصفحة

السبب في ذلك ليس دينيا وانما نابع من عوامـــل اقتصادية •

والان علينا ان نبين السبب الذي دعى الى تحريم الزواج بين الاقارب • فلو افترضنا بان الانسان الاول كان يعيش حقا على شكل جماعات تشـبه جماعات القردة العليا وان رئيس المجموعة كـــان ينفرد في امتلاك اناث مجموعته ، اعتقـد بان هذا الانفراد في الامتلاك وحرمان بقية الذكور من الاتصال بالانـاث ليس ناتجاً عن غيره الرئيس على اناثه كمـا يعتقـد فرويد وليس تابعاً كذلـك من حقـــده على ذكـور مجموعته وانما سبب ذلك يعود كذلك الى الناحيـة الغذائية ، لان ترك الذكور يتصرفون مـــع الاناث بحريتهم فان ذلك يساعد على تكاثرهم بسرعة ويجعل عددهم لا يتناسب وكمية الغذاء الذي تقدمه المنطقة• ولهذا السبب فقد حرم الرئيس من دون ادراكـــه للنتائج وأنما بغريزته عـلى ذكور مجموعته الاتصال بالاناث • اذ حتى الحيوانات في الطبيعـة نجـد في سلوكها الجنسي وطريقة تكاثرها نوعاً من الموازنـة بين عدد نفوسها وكميات المواد الغذائية المتواجـــدة في محيطهـا •

أما اذا كان الانسان القديم يعيش على شـــكل عوائل ضمن عشيرة واحدة ، فتحريم الزواج بيـــن الاقارب نابع بالتأكيد مـن نفس الدافـــع ، اذ ان العائلة الواحدة كانت تعيش بلا شك في كوخ صغير يضم الاناث والذكور ومن دون عادة تحريم الزواج بين الاقارب يكون تكاثر أفراد العائلة بشكل سريع• ولهذا السبب على ما اعتقد وضعت عـــادة تحريـم الزواج بين الاقارب ووضعت لها كذلك الحيطـــة الكافية من أجل الالتزام بها، بحيث حرم على الاقارب حتى العلاقات العاطفية العابرة ومن يخالف هـــذه القاعدة يكون عقابه الموت الاكيد كما بينا فيما سبق• والذي يؤيد على ان تحريم الزواج لا علاقة له اصلا بالدين نجد بان عقاب من يقتل طوطمه اخف وطئة بكثير من عقاب من يخالف عادة التحريم • واضافة الى ذلك نجد بان العشائر الطوطمية لا تقبل انتساب شبابها ما لم يمروا بأمتحان صعب[٣٩] من أجل ان تقوى ارادته على الالتزام بقواعد العشيرة والتي من أهمها تحريم الزواج بين الاقارب • هذا وقد رأينا ايضا كيف نظمت القبيلة نفسها في طبقات زواجيـة وكيف ضيقت بهذا التنظيم مجال الزواج بالنسـبة للافراد ، لان تحريم الزواج بين الاقارب وتضيق مجال اختيار الزوجة يفسح المجـــال للزواج فقط للشخص القادر على الحياة ويغلق الطريق بوجـــه الضعفاء الذين كانوا ينعمون بالجنس كبقية الرجال عندما كان الزواج بين الاقارب غير محرم •

هذا وقد يجوز جدا بان الجماعات المتوحشـة التي تأكل لحوم البشر والمدعوة بالكانيباليين يرجـع أصـــل عادتهـــم الى الفتـــرة التي سبقت ظهور

---

(٣٩) عندما يقرب الفتى من مرحلة التعميد اي التحاقه بمجمع الرجال يعتزل الناس معتكفاً في مكان قصيّ يختاره في اطراف جبل او غابة ويحـرم نفسه اثناء ذلك من جميع لذائذه وحاجاته الضرورية فيلتزم الصيام عن معظم المأكولات والمشروبات ، ولا يتناول شيئاً منها الا بعد ان يشرف على الهلاك وبالقدر الذي ينقذ حياته • ولا يكتفي بهذا المسلك في تعذيب جسمه ، بل يعمد الى وسائل ايجابية في التعذيب كالكي والتحريق والتقطيع • (انظر الدكتور عبدالواحد وافي ، المصدر السابق ص ٨٣) •

تحريم الزواج بين الاقارب وتحريم ذبح الحيوانات بصورة كيفية •

ومما يؤيد تعليلنا اعلاه هي ظاهرة وأد البنات[٤٠] التي مارسها الانسان القديم اضافة الى كل تحوطاته الخاصة بعدم زيادة عدد النفوس • ويبدو ان الانسان القديم قد بالغ في وأد البنات بحيث قل عدد النساء الى درجة تطلب الامر فيها ان تتزوج المرأة بأكثر من رجل واحد • ومن الادلة القديمة والخاصة بهذه الناحية هو ما ذكره الملك السومري « اورو كاجينا » (حكم في حوالي ٢٣٥٥ ق•م) ، اذ ادعى هذا الملك في كتاباته بأنه قد منع زواج المرأة بأكثر من رجل واحد[٤١] • وان دل هذا الخبر على شيء فأنما يدل على ان عادة زواج المرأة بأكثر من رجل واحد كانت منتشرة في العراق القديم قبل مجيء السومريين ، وبسبب ما قدمته الحضارة السومرية أصبحت هذه العادة غير محببة ولهذا السبب أقدم اورو كاجينا على الغائها • واضافة الى هذا الدليل القديم هناك دليل اخر الا انه احدث زمنيا من الاول يؤكد أيضا على ان زواج المرأة بأكثر من رجل واحد كانت عادة متعارف عليها في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام[٤٢] •

أما عن الكيفية التي صار فيها الحيوان او النبات أو الجماد معبودا لهذه العشائر ، فيبدو لي بان نظرية « فريزر » هي أقرب النظريات الاخرى الى الصواب ولكنها مع هذا تحتاج الى بعض التحوير وتحتاج أيضا الى اسنادها على قاعدة معينة من التفكير، ولذا فأنني سأنطلق في تفسير نظرية فريزر من نفس الاساس الذي فسرت بموجبه تحريم الزواج بين الاقارب وكيفية منح الحيوانات هالة من التقديس •

عندما كانت المرأة لاتعرف كيف يتولد الجنين في جوفها بدأت بعد مرحلة تقديس الحيوانات تعتقد بان الحيوان الذي كان يشغل بالها لحظة تحسسها بحركة جنينها في جوفها هو الذي ولد الجنين واعتقادها هذا لم ينتج لانه مجرد شي كان يشغل بالها لحظة تحسسها بحركة جنينها حسبما يعتقد فريزر وانما لكونه حيواناً مقدساً ولان اكله كان يولد رابطة الاخاء بين أفراد العشيرة • ولذا اعتقد ان الطواطم في بداية ظهورها كانت طواطم حيوانية فقط وظهورها جاء بعد ان ترسخت عادة تحريم الزواج بين الاقارب وبعد ان منح الحيوان شيئا من القدسية •

وبمرور الزمن وبعد ان تبلورت الفكرة على ان الشيء الذي كان يشغل بال المرأة لحظة تحرك جنينها هو المولد الحقيقي للجنين دخلت الى مجموعة الطواطم الحيوانية طواطم اخرى تقف في مقدمتها الطواطم النباتية • اذ من المؤكد ان كان بعض النساء يتحسسن بحركة الجنين وهن في منطقة خالية من الحيوانات ولا يوجد فيها سوى النبات أو أي

---

(٤٠) القرآن الكريم ــ سورة التكوير ، الاية ٧ : « واذا الموؤودة سئلت باي ذنب قتلت » • سورة الاسراء ، الاية ٣٠ : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » •

(٤١) Fischer Weltgeschichte 3, p. 84.

(٤٢) Hastings, Encyclopeadia of Religion and Ethics 8, p. 467.

وانظر كذلك : الدكتور جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الخامس ، الصفحات ٢٦١ و ٢٩٨ ــ ٣٠٣ •

جماد متميز أو مظهر من مظاهر الطبيعة أو احد الحيوانات من النوع الذى لا يؤكل • والشيء المؤيد لاعتقادنا بان الطواطم الحيوانية قد ظهرت قبل غيرها وتمثل الاصل في نشأة الطوطم هو لانها أكثر عددا واوسع انتشارا من الطواطم الاخرى •

وختاما نقول بان الجنس لا يمكن ان يكون الباعث الحقيقي لظهور الطوطم لانه في الاصل لا يحتاج لان يكون مشروطا بقيود ما عدا القيود التي فرضتها ضرورة وجود التناسب بين عدد النفوس وكمية المواد الغذائية التي تقدمها المنطقة ما دام انسان تلك الفترة لا يملك أية وسيلة مجدية في اكثار غذائه •